تفسير سورة الصافات
(دراسة تحليلية)

الدكتور

سيد زكى خليل إبراهيم

مدرس التفسير وعلوم القرآن

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه بيانا وهدى للعالمين ، ونورا وضياء للمستبصرين ورحمة للخلق أجمعين ، وحجة عليهم إلى يوم الدين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد السراج المنير والبشير النذير ، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم على الهدى والحق الأبلج المبين إلى يوم الدين .

وبعد :

فلقد تخيرت سورة الصافات لهذه الدراسة التحليلية المتواضعة ، والتى أرجو من الله العلى القدير أن يجعلها نفعا عميما لعباده المؤمنين اهل القرآن .

وذلك للإحساس العجيب الذي أحسسته بما ضمنه الله تعالى هذه السورة الكريمة فقد بسط فيها بناء عقيدة المؤمن على أسس ثابتة ثبات الجبال وأشد ، فثبت فيها من الآيات الدالة على كمال وحدانيته وألوهيته وعظيم قدرته، في طراز عالى من جودة النظم وحسن السبك ، وروعة التصوير .

واشتملت على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، كل ذلك في أسلوب محكم بديع .

ولإحساسى بهذه السورة التى يدور مقصودها ومركزها حول أصل الأصول وهو تخليص العبادة لله وحده ، لأنه المستحق لها ، لما له من صفات الكمال والجلال ، فقد اتبعت طريقة التفسير فيها على النحو التالى :

وربط الآيات بعضها ببعض لإبراز الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم مع ذكرعنوان لجمل من الآيات ، بإجمال موضوعها ، ثم درك مقصودها بسهولة ويسر،ثم أتبع ذلك ببيان مفردات وغريب الجمل ، والانتقال إلى المعنى المقصود حال الإفراد وحال التركيب، ثم نورد القراءات الواردة في الآية، سواء كانت عشرية أو شاذة ، وبيان المعنى على وجوه القراءات ، وحل المشكل منها ثم أذكر إعراب بعض المفردات والتراكيب ، وبيان المعنى على الوجوه التى ذكرت فيها ، وبيان المتدخل منها والمتوافق والمخالف وذكر الراجح ، وأنهى ذلك ببيان عظمة وروعة النظم القرآنى، في إيراد بعض الألفاظ دون أخرى من أسماء وأفعال وحروف ، وإيثار بعض التراكيب دون أخرى ، وإبراز المعنى البلاغى أو البيانى منه ، لبيان إحكام النظم القرآنى ، وأنه لايتطرق إليه خلل لفظى أو معنوى ، لأنه كلام مالك القوى القدر، ثم ذكر المعنى العام لجمل الآيات وبعض ما يستفاد منها ليتدرب طالب العلم على ذلك .

وكان سبب اتباعى لهذه الطريقة ، هو زعمى بأنها أوسع نظرا

في ألفاظ وتركيب كل آية من آيات السورة ، وربط الآية بالآية ؛ حتى تتكامل معانى موضوعات السورة الفرعية ، مع الموضوع الأصل الذي سيقت السورة من أجله ، وهو بناء العقيدة الصحيحة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صورة وأشكاله ، مع التركيز على صورة معينة منه كانت سائدة في بيئة العرب المشركين آنذاك ، فتكشف عن زيغها ، وعرض دلائل بطلانها .

وهذه الشبهات الشركية وغيرها ، لاتضمحل إلابالوحى الذي جاء به المرسلون وإمام ذلك كله القرآن الكريم ، ففيه البيان والهدى والنور .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يجعله خالصا لوجه ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

تمهيد:

هذه السورة تسمى بالصافات ، ووجه مناسبة التسمية هو أن الصف دال على اتحاد القصد ، كما في صفوف القتال والصلاة والملائكة لاقصد لهم إلا الله من غير عائق عن ذلك فكانوا أحق الخلق بالاصطفاف، تارة للصلاة ، وتارة للتسبيح والتقديس، وفيه الإشارة لجميع الخلق في وجوب اتحاد قصودهم بالتوحيد لله تعالى والإخلاص له والقيام عل الصراط المستقيم الذي بينه سبحانه لعبادة فهو وحده لما له من صفات الكمال المستحق للعبادة ، فكما أن الملائكة توحدت قصودهم له بالتوحيد والعبادة ، فكذلك وجب على جميع الخلق سواهم أن يحذوا حذوهم ، وأن يوحدوا قصودهم .

وقد أجمع العلماء على أن هذه السورة كلها مكية ، فقد نزلت السورة بمكة وموضوعها يدل على صحة هذا القول ، إذ إنها تورد الأدلة على قضايا التوحيد والبعث والحشر والنشر،على عادة القرآن في عرض هذه القضايا بأسلوب الإيجاز عدد آيها مائة وإحدى وثمانون عند البصرين، ومائة واثنان وثمانون عند الكوفيين وغيرهم .

وموضوعها :

هو تقرير ألوهية الله تعالى ، كونه معبودا بحق بكونه خالقا رازقا وحده ، وتنزيهه عن الشريك في الذات باستحالة الوالد والولد ، وفى

الصفات باستحالة الصاحبة والبنات لغناه المطلق ، وفى الأفعال فلا يشاركه أحد في خلقه ، فهو الخالق لكل شئ ، وما سواه مخلوق محتاج مفتقر إليه ، فهو سبحانه أحد في ذاته ، وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، فله الكمال المطلق الذي يستحق به العبودية ، والمراد من هذا كله، هو الاتحاد في التنزيه .

وقد ورد في فضلها من حديث أبى سعيد الخدرى ﷺ أن النبى ﷺ إذ فرغ من صلاته قال : سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وروى عن على ﷺ قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل في أخر مجلسه ، أو حين يقوم : سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين.

وروى صاحب الفردوس عن عن ابن عباس ﷺ أن النبى ﷺ قال: من قرأ يس والصافات ليلة الجمعة ، ثم سأل الله تعالى ، أعطاه سؤاله .

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات .

الموضوعات الفرعية للسورة :

تقدم ذكر موضوع السورة ، وهو إثبات العقيدة الحقة ، ببيان توحيد العبودية عن طريق توحيد الربوبية بأنه الخالق الرازق لكل شئ ، وتنزيه الله تعالى عن كل نقائص الشركة ، وللوصول إلى هذا المقصد الأسمى ، تعرضت السورة لبعض الموضوعات الفرعية اللازمة لهذا الأصل، والمساعدة في بيان حقيقته دون شائبة ، وهذه الموضوعات هى :

١- البعث بعد الموت والحساب على الأعمال ، والجزاء عليها ، قضايا البعث قد عرضت عرضا محكما في هذه السورة وغيرها ، وقد أقيمت الأدلة على ذلك وبيانها أتم بيان ، أدلة عقلية ونقلية وحسية ، وذلك لاستحالة الرجوع بعد الموت عند المكابرين المعاندين المقلدين لآبائهم ، إذ إنكار البعث بعد الموت بعد هذه الأدلة مكابرة ظاهرة .

٢- تعرضت السورة لذكر سلسلة من قصص المرسلين : نوح وإبراهيم وبنيه وموسى وهارون ن وإلياس ولوط ، ويونس عليهم السلام ، عن طريق الإيجاز تارة ، والاطناب أخرى ، وذلك لمناسبة المقام والمقال، تتكشف في هذا القصص رحمة الله تعالى بعباده بإرسال الرسل للبيان ونصره للرسل وأتباعهم ، وأخذه للمعاندين المكذبين بالعذاب والتنكيل .

٣- تعرضت السورة لقضايا الوحى والرسالة ، وأن الأنبياء والمرسلين جاءوا الحق من عند الله تعالى بما أوحاه إليهم من إنزال الكتب المتضمنة لأصول الاعتقاد ، والبعث والحشر والنشر والحساب والجزاء ، والمتضمنة كذلك الأدلة في الرد على ما تقوله المتقولون عليه سبحانه وعلى خلقه .

وقد ظهر أن دعوة جميع المرسلين وكذا الكتب المنزلة عليهم متفقة في أصول الاعتقاد والبعث والحساب والجزاء ، لأن دين الأنبياء واحد ، وإن اختلف في بعض الفروع .

ومناسبة هذه السورة لما قبلها ، هو أنه سبحانه لما ذكر المعاد وقدرته الشاملة على إحياء الموتى في سورة يس ، وأنه هو منشئهم ، وأنه إذا تعلقت إرادته بشئ كان ، ذكر سبحانه هنا وحدانيته ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجادا وإعداما إلا يكون المريد واحد كما يشير إليه قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)

قول الله تعالى ذكره :

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً * إِنَّ إِلَـهَكُمْ لَوَاحِدٌ* رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبِّ الْمَشَارِقِ

تقرير الالوهية عن طريق الصفات

استهلت السورة الكريمة بأسلوب القسم ، وهو أسلوب تكرر في بعض سور القرآن وغايته تحقيق وتوكيد جواب القسم و إن لم يكن هذا موجبا ، ولكنه جاء تبعا لعادة ما هو مستقر في خطاب العرب في توكيد الخبر بالقسم ، ولم يكن القرآن بهذا مخالفا عما هو مألوف عندهم من تنويع أسلوب الخطاب في إقتناع المخاطبين لاختلاف نسبة الاقتناع عندهم .

ولما كان القرآن نزل بلسانهم ، ويشتمل على جميع أساليب خطاباتهم ، كانوا أعرف الناس بمقصود كل أسلوب ومن هذه الأساليب ، أسلوب توكيد الخبر بالقسم للفصل فى حكم هذا الخبر ، وأنه صورة من إقامة الحجة على أكمل وجه وليس لعدم تصديق الخبر، لأنه حق فى نفس الأمر .

ولذا روى عن الحسن أنه قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال[١].

(قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا) وقد كان العرب الأقحاح يدركون حقيقة هذا الأسلوب وأنه لا يلجأ إليه إلا عند وجود علامة الإنكار للخبر عند المخاطب ولذا روى عن الأصمعى قال : أقبلت مع جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود فقال : ممن الرجل ؟ قلت من بنى أصمع قال: من أين أقبلت ، قلت :

من موضع يتلى فيه كلام الرحمن قال: اتل على، فتلوت (وَالذَّارِيَاتِ) فلما لغت (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى .

فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفت فإذا بالأعرابى قد نحل واصفر ، فسلم على واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا فقرأت (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا أغضب الجليل حتى حلف لم يصدقوه بقوله حتى ألجاؤه إلى اليمين[٢] قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه .

---

(١) الأثر فى الدر المنثور للسيوطى ج٧ ص٦١٩ وهو مرسل.
(٢) ذكرها الألوسى فى روح المعانى م٨.

وهذا يدل على عظم هذا الأسلوب من الخطاب عندهم ، و قد جرى القرآن على عادتهم فى الخطاب فأورده على أحسن وأبدع وجه وهو هنا فى هذه السورة جاء على أمر عظيم ، خلق الله الخلق له ، وحذرهم بالغ التحذيرلمخالفته ، ألا وهو توحيده وإفراده بالعبودية ، إذا هو رب كل شى و مليكه .

والقسم بفتحتين اسم من : أقسم بلله إقساما إذا حلف، وأصله من القسامة - بفتح القاف - وهى الأيمان تقسم على أولياء القتيل إذا ادعوا الدم .

يقال : قتل فلان بالقسامة : إذا اجتمعت جماعة من أولياء القتيل ، فادعو على رجل أنه قتل صاحبهم ، ومعهم دليل دون البينة ، فحلفوا خمسين يمينا أن المدعى[1] عليه قتل صاحبهم، فهولاء الذين يقسمون على دعواهم ، يسمون قسامة .

والقسم فى القرآن هو : أن يقسم الله سبحانه بأمورعلى أمور ، فيقسم سبحانه بنفسه الموصوفة بصفاته أوآياته المستلزمة لذاته وصفاته

والقسم غالبا ما يكون على جملة خبرية ، كما فى قوله تعالى (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ[2]) وقد يكون على جملة طلبية ، مع

---

(١) المصباح المنير، لأحمد بن حمد بن على المقرى الفيومى، تـ ٧٧٠هـ ج٢ ص١٦١.

(٢) سورة الذاريات ، أيه ٢٣.

إرادة تحقيق وتوكيد المقسم عليه أو تحقيق القسم ، فيكون من باب الخبر.

ووجه تحقيقه وتوكيده ، هو كون المقسم عليه من الأمور الغائبة والخفية ، فيقسم على ثبوتها وتحققها.

أما إذا كان القسم فى الأمور الظاهرة المشهورة ، كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم الله بها ولا يقسم عليها .

وهو سبحانه يقسم على أصول الإيمان، التى يجب على الخلق معرفتها، فهو يقسم على التوحيد تارة ،ويقسم على أن القرآن حق و تارة يقسم أن الرسول حق وتارة يقسم أن الجزاء والوعد والوعيد حق وتارة على حال الإنسان .

فمما هو من النوع الأول ،والذى يعتبر أصل أصول الإيمان استهلال هذه السورة به ، فهو يقسم على أحقية ألوهيته على جميع الخلق، وهو ما يجب على الخلق معرفته[1] .

(إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ) ومن أجل هذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لبيانه وإيجابه إذ هو المستحق له وحده لعظيم خلقه وألائه .

وأركان القسم أربعة هى : أداة القسم ، والأصل فيها الواو ،

---

(١) سورة الصافات ، آيه ٤.

كما هو فى هذه السورة ويحذف معها فعل القسم ، ويليها الباء، ولا يحذف معها الفعل ،ومنه قوله[١] تعالى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) [٢] ويليها التاء،ويحذف معها الفعل، كما في قوله (تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) .

وثانى هذه الأركان فعل القسم ، وقد يحذف مع بعض أدوات القسم كما تقدم .

وثالثها المقسم به ، وهو إما أن يكون بالفاعل الحقيقى كالقسم به سبحانه كما في[٣] قوله تعالى(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) وإما بالفعل ، كما في قوله تعالى (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)[٤] وذلك بناء على أن (مَا) مصدرية .

أما إذا كانت موصولية ، فهو قسم بالفاعل .

وإما أن يكون القسم بالمفعول ، وذلك لعظم المصنوع لأن عظم المخلوق يستلزم[٥] نه تعظيم الخالق وذلك كما في قوله تعالى ،

---

(١) سورة النحل ، آيه ٣٨.
(٢) سورة النحل ، آيه ٣٨.
(٣) سورة النساء، آيه ٦٥.
(٤) سورة الشمس ، آيه ٥، ٦، ٧ .
(٥) سورة البروج ، آيه ١.

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) وقوله[١][٢] (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ)، وقوله (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ) .

ورابعها المقسم عليه ، وهو ما يسمى بجواب القسم ، وقد يحذف لدليل يدل عليه وغالبا ما يكون منكورا كما هو في هذه السورة (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ) .

ولما كان القسم وسيلة من وسائل الاقناع ، ويستحدم في موضع الاحتياج إليه وغايته تحقيق وتوكيد الخبر لزم أن يوجد علاقة وطيدة بين المقسم به والمقسم عليه ، وهذا من خصائص القسم في القرآن الكريم[٣] .

فمثلا قوله تعالى (وَالضُّحَى، والليل إذا * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى* مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) تظهر فيه العلاقة المعنوية الوطيدة ، وهي تشبيه نور الوحى بالضحى، وانقطاعه بظلام الليل[٤] .

وقوله (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) فالعلاقة هنا هو تشبيه النبى صلى الله عليه وسلم بالنجم في الاهتداء به .

وإذا تؤملت العلاقة في في هذه السورة ، بين المقسم به

---

(١) سورة الطارق ، آيه ١.
(٢) سورة التين ، آيه ١.
(٣) سورة الضحى ، آيه ١، ٢، ٣.
(٤) سورة الصافات، آيه ٥.

(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا) وما بعده ، والمقسم عليه (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ) فإنها ظاهرة في وجه الشبه بين مدلول كنة الصف ، الذى يشير إلى وحدة التوجه فى صفاته ، ووحدة الاستقامة في ذاته ، وإن ما يشبه هذا يجب أن يكون لله تعالى ، من قبل خلقه من البشر غيرهم ، وهو توحيده ، والتوجه إليه وحده بالعبودية ، إذ هو وحده المستحق لذلك ، و قد دلل على وجوب ذلك له بما يؤذن بما هو كالعلة لذلك ، وهو خلقه و إيجاده لكل شيء(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) فيجب توحيده سبحانه بالذات والصفات ، كوحدة الصف المستقيم لا عوج فيه ولا أمتا وأن يكون هذا الفعل الصادر من العباد خالصا له وحده ، لا شيء منه لأحد وهو المقصود أو المحور الذى تدور حوله هذه السورة .

وهذا الارتباط المعنوى بين المقسم به والمقسم عليه راجع إلى صفة في المقسم به وهو دلالة الصف دون نظر إلى المراد بذات الصاف.

فإذا كان المقصود به الملائكة،وهو الراجح من أقوال المفسرين، وسيأتى تفصيله فإن وجه العلاقة هو إقسام بغيب على غيب فالملائكة ذوات غائبة، خلقت من نور ، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ وقد أمرنا بالإيمان بها وبأنها تقوم بأمر الله تعالى[1] (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) ولم نكلف بدرك كنه ذلك الخلق ، وما هو عليه فهو من عالم الغيب ،

---

(١) سورة التحريم ، آيه ٦.

وأخبرنا ببعض أوصافهم وأعمالهم والله سبحانه غيب عنا أخبرنا بأسمائه وأوصافه وأفعاله الدالة على كماله وجلاله ، والآثار التى تغمرنا من أسمائه وصفاته تدل على ذلك ، وبهذا استحق أن يكون له كل الحمد والثناء و ذلك يستلزم توحيده وعبادته وحده من جميع الخلق.

وبهذا يظهر الارتباط والعلاقة بين المقسم به و المقسم عليه من هذا الوجه .

وأيا ما كان هذا الارتباط المعنوى ، فإن القسم في القرآن الكريم يجيء من الله سبحانه على أصول الإيمان التى يجب على الخلق معرفتها، وأول هذه الأصول توحيده وهو حقه عليهم ....

و المقصود به هنا توحيد العبودية أو الألوهية ، الذى يعنى إخلاص التوجه إليه وحده ، بجميع ما يجب أن يكون له من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنه كالخوف والرجاء والحب و سائر أنواع العبادة ..

و الظاهر أن المقسم به هنا هو هذه الأشياء التى ذكرت بعد الواو وهى الصفات والزاجرات ، والتاليات والعدول عنه خلاف الظاهر من اللفظ .

وأما ما ورد من النهىعن الحلف بغيرالله تعالىفهوخاص بنهى

المخلوقين عن ذلك وأما الخالق فله أن يقسم ببعض مخلوقاته ، للتنبيه على عظمها ، أو عظم ما تقوم به، للتدليل على جلال وعظيم خالقها فعظم المخلوق، دليل علىعظم وتعظيم خالقه ولذا جاء القسم ، بالشمس والسماء ، والقمر ، والنجم ، وغير ذلك من عظيم خلقه و قيل أن القسم في مثل هذا به سبحانه ، لأن القسم تعظيم للمخلوق ، و مثل هذا التعظيم لا يليق إلا بالله تعالى ، ففى مثل هذا إضمار تقديره: ورب الصافات[1]

وقد صرح به في قوله (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ) وقوله (وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا) وما حذف في موضع فقد ذكر فى موضع أخر، فهذا يفسر ذاك و الواجب التفريق بين عظم الشيء من حيث خلقه ، وبين تعظيمه فهذه مخلوقات ذكرها الله لعظم خلفها، للتدليل بعظمها على إجلاله و تعظيمه وتقديسه ، وأما هذه المخلوقات فلا تقدس ولا تعظم إذ ليس كل عظيم الجرم يعظم .

و الدليل على أن القسم بهذه الأشياء تنبيه بعظمها من غير تعظيمها إخباره سبحانه وتعالى عن المعاندين في ألوهيته إقرارهم بأن هذه مخلوقات له (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ[2]) فالله يذكر بأن ما أقروا به هو خلقه لهذه

---

(١) سورة الذاريات ، آيه ٢٣.
(٢) سورة الزخرف ، آيه ٩.

الأجرام العظيمة يستلزم منها تعظيم خالقها وتقديسه و إجلاله وأنه المستحق لذلك ، لا هذه الأشياء المخلوقة ، لأنه سيكون حلف مخلوق بمخلوق فلا يملك العظمة التى هى الإيجاد من العدم والإفناء بعد الوجود .

و بهذا تظهر حكمة قسم الله تعالى بهذه الأجرام عظيمة الخلق .

و الصف هو: أن تجعل الشيء على خط واحد مستو، كالناس والأشجار ونحو ذلك، يقال صففت القوم فاصطفوا ، إذا أقمتهم على خط مستقيم ، لأجل الصلاة أو الحرب [١] .

أو بمعنى الصاف ، قاله أبو عبيدة[٢] ومنه قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)[٣] وقوله (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا) [٤] وقوله (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) [٥] أى مصطفة [٦].....

و الزجر هو : الدفع عن الشيء بقوة التسلط والصياح وبمعنى السوق والحث وبمعنى المنع و النهى ، وإن لم يكن صياح .

وعلى الأول يكون الزجر ، هو دفع العباد بقوة عن المعاصى و زجر الشياطين عن الوسوسة والإغواء وعن استراق السمع .

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ج٧ ، ص ١٠٧.
(٢) مجاز القرآن لابى عبيدة .
(٣) سورة الصف ، آيه ٤.
(٤) سورة طه ، آيه ٦٤.
(٥) سورة النور ، آيه ٤١.
(٦) المفردات للراغب ص ٢٨٢.

وعلى الثانى يكون الزجر، هو ما نيط بالزاجر من زجره للأجرام العلوية والسفلية ، كإدارة الأفلاك ، بطلوعها وغروبها وإجراء المياه الأرضية ، وإخراج النبات ، و إرسال السحب ، وهو ما أشار إليه في الآية الأخرى بقوله تعالى (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً) [١] وكل هذه المعانى وغيرها داخل في مسمى الزجر، وهى مرادة ومن هنا جاء اللفظ القرآنى بالزجر ، الذى هو أشمل معنى من الدفع أو المنع أو النهى .

التلاوة مصدر تلا ، يقال ، تلا القرآن قرأه ، تلاوة و قرأة ، والتلاوة أخص من القرأة فكل تلاوة قرأة و ليس كل قرأة تلاوة[٢] .

و التلاوة على هذا تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراة كما هنا (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً) لأن عدوله عن ذكر المصدر (تلاوة) بـ (ذكرا) يدل على إرادته القرآن وغيره من تسبيح و تحميد و تارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى و ترغيب و ترهيب، أو ما يتوهم فيه ذلك ، كما في قوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) [٣] .... الآية يعنى يتبعونه حق اتباعه و الإله من : أله يأله ، فهو مألوه ، أى معبود فالإله على هذا هو المعبود وخرج عليه قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) [٤] يعنى و سبحانه

---

(١) سورة النازعات ، ايه ٥.
(٢) المفردات للراغب ص ٧٥
(٣) سورة البقرة ، آيه ١٢١.
(٤) سورة الزخرف ، آيه ٨٤.

معبود في الأرض ، كما هو معبود في السماء.

و قيل: من : أله يأله ، إذا تحير ، وقيل : أصله من : ولاه فأبدل من الواو همزة وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والها نحوه، إما بالتسخيرفقط أوبالتسخير والإرادة وقيل من : يلوه لياها أى : احتجب[1] ، والمعنى الأول هو الألصق بالمراد هنا و المعانى الأخرى داخلة فيه دخول الجزء في كله .

و الواحد : هو الشيء الذى لا جزء له البتة ، ومعنى وصف الله تعالى بأنه واحد أى : الذى لا يصح عليه التجزى ولا التكثر وأحد أبلغ منه ، ولذا لا يوصف به[2] غير الله تعالى .

و(رب) أصله من التربية ، وهو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام ، يقال :

ربه ، و ربله ، وربيه فهو مصدر يضاف للفاعل ، ولذا لا يقال الرب على وجه الإطلاق إلا لله ، لأنه بهذا نظير الإله ، ومنه قوله تعالى (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ) أى ألهة ، ولكن يطلق على سبيل التقييد فيقال: رب الدار، و رب الفرس لصاحبهما[3] .

و انتصاب (صَفّاً) و (زَجْراً) و (ذِكْراً) إما على المصدرية[4] ،

---

(١) المفردات للراغب ص ٢١، ٢٢، بتصرف.
(٢) نفس المصدر ص ٥١٥.
(٣) نفس المصدر ص ١٨٤.
(٤) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص ٦٥.

ويتأكد هذا فى (صَفًّا) و (زَجْراً) لأنه من مادة الفعل .

و المقصود من المصدر هنا تـأكيد الفعـل ، و تنكـيره للتعظيـم والمبالغة كأنه يقول :

والصفات صفا بديعا فالزاجرات زجرا بليغا .

والإتيان به من اسم الفاعل (صَافَّاتٍ) لأنه يدل على الفعـل ، من غير العكس وهذا يدل على كمال المبالغة في بيان عظم و عجيـب هذا الصف ، أو تلك الصفوف ، التى يعجز الرائى لها أن ينعتها.

و كذلك الزجـر ، لبيـان الشـدة و القـوة و المبالغـة في بعـض أنواعه و لذا اختير لفظ الزجر وتوكيده مـن جنسـه دون غـيره لإرادة الشمول لجميع أنواعه .

و قد جاز في (ذِكْراً) أن يكون مصدرا ، و إن لم يكن من مادتـه (فَالتَّالِيَاتِ) لأن التلاوة التى بمعنـى القـرأة لا تكـون إلا بذكـر، ولـذا اختير لفظ (ذِكْر) عن غيره وعن المصدر (تلاوة) لإفادة عموم الذكـر ، وأنـه يكون بقرأة قرآن أو تسبيح أو تحميد أو غير ذلـك مـن أنـواع الذكر ، و يدخل القرآن في ذلك دخولا أوليـا و سـواء كـان هـذا مـن الملائكة أو غيرهم .

إذا لو قيل (فَالتَّالِيَاتِ) تلاوة ، لإفاد تلاوة معينة لشيء واحـد ، و لم يشمل أنواعا أخرى من الذكر .

ومن هنا قالوا أن (ذِكْراً) مصدر، وقد أفاد بكونه مصدرا تأكيد الفعل ، و نكيره للتضخيم و التشريف لهذا الذكر، و كأنه قيل : (فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً) شريفا كريما عظيم الشأن ، أو أن انتصاب هذه الألفاظ (صَفّاً) ألخ على المفعولية[1]، وتأكد المفعولية ظاهر في (ذِكْراً) إذا هو معمول لاسم الفاعل (فَالتَّالِيَاتِ) ، ولأنه ليس من مادته ، و إن كان من معناه .

وأما (صَفّاً) و (زَجْراً) فيمكن أن يكون كلا منهما قد وقع معمولا على نفس الصافات ، وكأنه قيل : والصفات أنفسها ، أى : الناظمات في سلك الصفوف بقيامها في مقاماتها المعلومة ، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ) [2] أو أن الفعل قد وقع من غير قصد إلى المعمول ، وكأنه غير مراد ، والمعنى : الفاعلات للصفوف .

و على هذين المعنيين مدار قوله تعالى (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ) ورب بدل من (لَوَاحِدٌ) ، إذ هو المقصود لذكر المخلوقات بعده على سبيل الإجمال ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا ، و يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ مضمر و تقديره: هو رب[3] وإضافته للسموات لتعيين أنه المالك والسيد لها.

---

(١) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص ٦٥

(٢) سورة الصافات ، آيه ١٩٥.

(٣) الدر المصون للسمين ج٩ ص٩ بتصرف.

وقد اتفقت كلمة المفسرين[1] على أن المراد من المقسم به في قوله (والصافات فالزاجرات فالتاليات) أنهم الملائكة ، و ذلك باعتبار أن المذكور هنا ثلاثة أقسام منها ، كل قسم يقوم بفعل ما أمروا به ، أو أن الملائكة جميعا على هذه الأمور الثلاثة ، و أن أعمالهم لا تخرج عن هذه الأفعال المذكورة في هذه الآيات .

إما أن يكونوا صفوفا في مقام العبودية لله تعالى، أو زاجرين عباد الله عن ارتكاب المعاصي، أو تالين لكتاب الله تعالى مسبحين بحمده .

والقول الأول يعود على خصوص الموصوف بالحدث الذى يقوم به هؤلاء الملائكة الذين هم أصناف بتعدد تلك الصفات .

و يكون ترتيب هذه الصفات على سبيل الترقى ، فالصف في الرتبة الأولى، لأنه عمل قاصر، والزجر أعلى منه لما فيه من نفع غيرهم، و التلاوة أعلى منهما لما فيها من نفع الخاصة السارى إلى نفع العامة ، بما فيه من صلاح المعاش و المعاد و قد يكون على العكس، فتكون الصافات أفضل فالزاجرات فاضل، فالتاليات مفضول والظاهر هنا أنها للترتيب الرتبى باعتبار الترقى،لأن الذات المتصفة بها الملائكة متعددة ، إذا هم أصناف صنف منهم كذا و صنف أخر كذا .

---

(١) جامع البيان للإمام الطبرى م١٢ ج٢٣ ص ٣٣.

فالجماعات الصافات كاملون ، والزاجرات أكمل منها والتاليات أكمل منهما والقول الثانى يعود على خصوص الصفة ، ووجود الحدث و يكون الترتيب على سبيل أمر خارجى عن الموصوف ، فالصف يوجد أولا،لأنه كمال للملائكة في نفسها ، ثم يوجد بعده الزجر لغيرهم ، لأنه تكميل لغيرهم ، ثم توجد التلاوة بناء على أنها إفاضة على غيرهم وهو مستعد لها و ذلك لا يتحقق إلا بعد حصول الاستعداد الذى هو من آثار الزجر، ويمكن أن يكون على العكس [1].

فالتلاوة أولا، فالزجر الذى لم يتحقق بالعلم من التلاوة، فالصف المترتب من آثار الزجر و العلم .

وهذا كله راجع إلى مدلول حرف الفاء في (فَالزَّاجِرَاتِ) و(فَالتَّالِيَاتِ) لإنها إما أن تدل على ترتيب وجودى ، أو ترتيب موصوفاتها.

و قد زعم بعضهم أنه لا يجوزحمل هذا اللفظ (وَالصَّافَّاتِ) و كذا ما بعده على الملائكة ، لأن اللفظ مشعر بالتأنيث و الملائكة مبرؤن من هذه الصفة .

ويجاب عنه : بأن التأنيث المعنوى هو الذى لا يحسن أن يطلق عليهم وأما اللفظى فلا مانع منه إذ هم المسمون بالملائكة ، و يمكن

---

(١) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص ٦٦

أن يقال : إن اللفظ فى معنى جمع الجمع ، فالصافـات: جمع صافـة أى : طائفة أو جماعة صافه[١] و إذا كان تحقق من كلمة المفسرين ، أن المقصو د بالمقسم به هنا الملائكة ، فقد قيل : أن المـراد بالصافـات المصطفـون للعبادة من صلاة و غيرها ، أو العلماء الصافـات أنفسـها في صفـوف الجماعات أو أقدامها في الصلوات أو المجـاهدون يصفـون أنفسـهم في محاربة الكفرة لقوله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِيـنَ يُقَـاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِهِ صَفًّـا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) [٢] أو الطـير تصـف أجنحتـها لقولـه تعـالى (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) [٣] .

و الزاجرات العلماء الذين يزجرون العباد بالمواعظ و النصائح ، تزجر أعداء الله ، أو الزاجرات الخيل للجهاد سوقا أو آيـات القـرآن الزاجرات عباد اللـه عـن كل قبيح، أو ما زجر الله عنه في القرآن .

و التاليات ذكرا، هم بنوا آدم يتلون كتاب الله المنزل و يسبحون بحمده ، أو العلماء الذين يتلون كتاب الله بدراسة شرائعه و أحكامـه ، أو التاليات آيات الله وذكره وتسبيحه في الجهاد و غيره ، أو المـراد بـهم القراء خاصة ، أو ما يتلى في القرآن من أخبار الناس و الأمم قبلكم .

وأيا ما كان الذى قيل : فلا مانع من دخول كـل صـاف و كـل

---

(١) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص ٦٤
(٢) سورة الصف ، آيه : تقدمت
(٣) سورة النور ، آيه : تقدمت

زاجر ، وكل تال إذ اللفظ يشمله ، غير أن الذى يدخل دخولا أوليا هم الملائكة ، لأنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال أولا، فحق أن يدخلوا في النص أولا ، و غيرهم ممن و صف بهذا تبع لهم ، و مدلول الصف ، و الزجر ، و التلاوة يحتمله .

و لذا أوثر العطف بها دون الواو .

و قد أدغم أبو عمرو وحمزة التاءات الأخيرة من (الصافات) و(الزاجرات) و (التاليات) في الحرف الذى في أول الكلمات التى بعدها ، و ذلك الإدغام علته التقارب ، أى : تقارب هذه الحروف المدغم و المدغم فيه ، إذ جميعها من طرف اللسان و الشفتين ، وأصول الثنايا ، و الإدغام يستلزم منه المد المشبع لوجود السكون بعد حرف المد ...

و قرأ الباقون من القراء بإظهار التاء هنا ، و كذا ما شابهه في المواضع الأخرى[1] فالعطف بالفاء على الصف لاختلاف الذوات أو الصفات ، وجواب القسم قوله (إن إلهكم لواحد[2]) أو المقسم عليه وهو الركن المؤكد و المهتم به ، من أركان القسم والذى سيق الكلام لأجله ، ولذا جيء به كذلك مصدرا بالتوكيد (إن إلهكم)

والمعنى : و الصافات صفا .....الخ إن معبود كم الذى يستوجب

---

(١) كما فى قوله تعالى (والذاريات ذروا)

(٢) سورة الصافات : تقدمت

عليكم أيها الناس العبادة ، و إخلاص الطاعة منكم له ، لواحد لا ثانى ، و لا شريك له، فأخلصوا له العبادة ، و خصوه بالطاعة ، و لا تجعلوا له شريكا في ذلك و أظهر الأدلة على وحدته و ألوهيته على خلقه أجمعين ما جاء بعد جواب القسم من قوله (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) فإن خلقها على هذا النمط ابديع ، و تسخيرها هذا التسخير المنيع ، لأكبر دليل ، وأوضح برهان، على أنه إله العالمين ، بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على ذلك .

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وهذا من باب التدليل بتوحيد الربوبية ، و هو خلقه للسموات و الأرض ، على توحيد الألوهية .

بمعنى : إن الذى خلق هذا الخلق البديع المتقن ، و الذى لا يتطرق إليه خلل ما يجب أن يعبد وحده ولذا فهو الإله بحق ، والذى يجب أن تكون له الطاعة والإخلاص التام بالتوحيد و التوجه إليه وحده لأنه الخالق وما سواه مخلوق و بهذا الدليل ألزم الكفار و المعدون للألهة ،فقد أخبر عنهم في آيات أخر، كما في قوله تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ

الْمُتَوَكِّلُونَ) [١] و قوله (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) [٢].

فهو يلزمهم بتوحيد الألوهية ، و هو قصده وحده مع الإخلاص له ، لإقرارهم بتوحيد الربوبية ، وهواعترافهم بأنه الخالق لهم ، ولهذه الأجرام العظيمة والذى يستلزم الإذعان به ، الإقرار بالبعث بعد الموت والمجازاة على الأعمال وهذه هى طريقة القرآن و منهجة في إقامة الحجة على الكفار والمعندين للألهه قانون مستقيم .

وتخصيص (الْمَشَارِقِ) بالذكر دون المغارب ، إما لأن الشروق قبل الغروب أو أن الشروق ينبئ عن الغروب ، أو هو مستلزم له ، ولأن الشروق أدل على كمال القدرة ، و أبلغ في بلوغ النعمة ، و لذا استدل به إبراهيم عليه السلام عند محاجة الذى كفر .

و جمع (الْمَشَارِقِ) و كذا (الْمَغْرِبِ) في موضع أخر باعتبار جميع السنة إن للشمس ثلاثمائة وستين مشرقا ، و كذا المغارب

و أما قوله (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) بالتثنية ، فباعتبار مشرقى الصيف و الشتاء و مغربيهما ، وأما إفراده لهما في قوله (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) [٣] فباعتبار أفقى المشرق

---

(١) سورة الزمر ، آيه ٣٨.
(٢) سورة الزخرف، آيه ٨٧.
(٣) سورة المزمل ، آيه ٩.

المشرق و المغرب .

و أما اختصاص كل موضع بما وقع فيه ، فلأنه حيث جمع كان ذلك في سياق التدليل على كمال قدرته في خلقه و سعة ربوبيته عليهم أجمعين ، كما هو ظاهر في الآية هنا ، إذا المقسم عليه ، و هو الإله الواحد رب هذه المخلوقات العظيمة التي تدل على عظمة خالقها ، فجاء الجمع في جملة المربوبات المتعددة وهي السموات و الأرض و ما بينهما و حيث ورد مثنى، و ذلك في سورة الرحمن فلأن السورة جأت في مساق المثاني المزدوجات ، فذكر أولا نوعي الإيجاد وهما الخلق و التعظيم ، ثم ذكر سراجي العالم و مظهري نوره الشمس و القمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق و ما انبسط منه على الأرض وهما النجم والشجر ، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة و الأرض الموضوعة ، وأخبر أنه رفع هذا ووضع هذه ، ووسط بينهما ذكر الميزان ، ثم ذكر العدل و الظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم ، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض و هما الحبوب و الثمار ، ثم ذكر نوعي المكلفين، و هما الإنسان و الجان ، ثم ذكر نوعي المشرقين ، و نوعي المغربين ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب و هكذا إلى نهاية السورة فحسن تثنية المشرق و المغرب في هذا الموضع ، لمناسبة موضوع السورة .

وحيث أفردا ، فلان مساق السورة ، و هي سورة المزمل جأت

بذكر المفردات من اليل و النهار ، وما يكـون في كـل منـهما ثـم ذكـر المشرق و المغرب الذين همـا مظهر الليل و النهار ، ثم ذكـر أعظـم و أتم المفردات ، و هو توحيده، وإفراده بالعبودية وحـده ، و هـو موضـوع السورة (ربِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً) [1].

فجأ الإفراد في هذا الموضع لمناسبة موضوع السـورة و لا يليـق بهذا الموضع سواه .

وكان الجمع هنا في هذه السورة في غاية اللياقة و الحسن وكـان اقتصار المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال فإن المشارق مظـهر الأنـوار وأسباب انتشار الحيوان وحياته و تصرفه و معاشه و انبسـاطه ، فـهو إنشاء مشهود وقد قدمه بين يدى الـرد علـى منكـرى البعـث ، لبيـان كمال قدرته و إحاطته بجميع خلقه .

وهذه إشارة إلى شـئ مـن حكمـة النظـم القرآنـى ، في جمعـه لبعض الألفاظ فى موضع وتثـنيتها فـي مـوضع ، وإفرادها في موضع ، و قد جأت في كل المواضع ، في غاية الحسن و الإحكام .

و إيثار اسم الفاعل (و الصافات) و ما بعده دون الفعل منـه سبحانه، لأن المقصود بيان الصفة التى قامت بهذا الخلق ولأنه أشمل في ضم الحدث إليه واستلزامه في حصوله من محـدث مكـنهم مـن هـذا

---

(١) بدائع الفوائد لإمام محمد بن ابى بكر الدمشقى ، المدون بابن قيم الجوزية تـ(٧٥١) م١ ج١ ص١٢١

الحدث.

و إيثار (لَوَاحِدٌ) دون (أحَد) مع أبلغية أحد عن واحد لأن المقصود هنا الصفة الناشئة عن الواحدية ، وهى الألوهية دون الأحدية التى تتعلق بالذات ، مع مناسبتها مع وحدة الصف المرادة من التوكيد بالمصدر .

و المعنى:

هذا قسم من الله تعالى بالملائكة الكرام ، و ذلك في حال عبادتها و تدبيرها ما تدبر من أمور الخلق ، بإذن ربها سبحانه ، على ألوهيته تعالى و ربوبيته ، فهم في خدمة ربهم ، لا يعصونه و يفعلون ما يؤمرون به .

و لما كانوا كذلك متأهلين لربهم ، ومتعبدين في خدمته ، و لا يعصونه طرفة عين أقسم بهم على ألوهيته إذ لا شريك له في ألوهيته ، و لذا فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء وسائر أنواع العبادة ، لأنه هو رب كل شئ ومليكه وهو المدبر له ، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته و هم مقرون بذلك فكذلك لا شريك له في ألوهيته .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- القسم من الله تعالى ببعض مخلوقاته،لبيان عظمها، وللتدليل بها على عظمته ، المستلزمة لألوهيته .

٢- محبة الله تعالى لعباده المصطفين لعبادته ، و المانعين خلقه من معصيته والتالين لآياته ، المسبحين بحمده .

٣- إلزام الخلق عبودية الله ، بإقرارهم ربوبيته على الخلق أجمعين .

٤- التفكير في آيات الله تعالى الكونية ، وأولها السموات لما تحتويه من عظيم الخلق و الإبداع .

قول الله تعالى ذكره :

إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ

(بعض دلائل قدرة الله تعالى)

و لما كان ما تقدم من الآيات ظاهر الدلائل ، واضح البراهين على وحدة ألوهيته تعالى على خلقه ، و أن هذه الدلائل لا يتطرق إليها لبس أو شك ، لفت الكلام إلى التكلم في مظهر العظمة ، منبها على أن تركهم أو عنادهم أو جحودهم لتوحيد الألوهية له ، بمنزلة من ينكر ما للنجوم و الكواكب من الزينة والنور المحسوسين وهي في نفسها تدل على عظمة الله سبحانه ، لما لها من عظم الجرم ، ومنافع للخلق لا تحصى .

فالذى ينكر هذه الأدلة في حق ألوهيته ، كاالذى ينكر وجود هذه النجوم ، وما لها من عظيم الفائدة على خلقه .

(زَيَّنَّا) الزينة ما يزين به ، أو ما يتزين، وهذه الزينة هى التى تدرك بالبصر و التى يعرفها الخاصة والعامة [1].

---

(1) المفردات للراغب ص ٢١٩.

و تضعيف الفعل (زَيَّنَّا) لبيان فخامة هذه الزينة و أنها ليست كأى زينة، ولذا قال في آية اخرى (وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) [١].

(السَّمَاءِ) كل ما علاك ، و المقصود بها هنا ، القربى أى : أقرب السموات إلى أل الأرض ، لأن سماء كل شئ أعلاه ، وقال بعضهم : كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء وبالإضافة إلى ما فوقها فأرض ، إلا السماء العليا، فإنها سماء بلا أرض[٢] (الدُّنْيَا) مؤنث أدنى ، بمعنى أقرب ، افعل تفضيل .

(الْكَوَاكِبِ) جمع كوكب، وهو : كما قيل جرم معتم ، وقد يكون مضيئا بغيره والنجم جرم مضئ بنفسه ،ولذاقيل : الكواكب السيادة ، والثوابت يتثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف ، ولذا قال (النَّجْمُ الثَّاقِبُ)

(شَيْطَانٍ): الشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات وهو إما من : شطن : أى تباعد ، و النون عليه أصلية ، و قيل : هو من شاط إذا احترق غضبا ، وعليه فالنون ليست أصلية .

(مارد) المارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرى من الخيرات ، من قولهم : شجر أمرد إذا تعرى من الورق[٣] ، و المقصود به

---

(١) سورة الحجر ، آية١٦.
(٢) المفردات للراغب ص ٣٤٣.
(٣) المفردات للراغب ص : ٤٦٦.

هنا مردة الجن المعرى عن المحاسن و الطاعة .

(لا يَسْمَعُونَ) : الأصل يتسمعون ، وأدغم التاء في السين ، بعد إبدالها سينا وأدغمت السين في السين .

(الْمَلأِ الْأَعْلَى) الملأ : جماعة يجتمعون على رأى فيملئون العيون رواء و منظرا[1] ، و المقصود به هنا الجمع الشريف العظيم من الملائكة الكرام .

(وَيُقْذَفُونَ) القذف الرمى البعيد ، يقال : منزل قذف و قذيف ، و بلدة قذوف بعيدة [2] .

(جَانِبٍ) الجانب الجهة و الناحية ، و المعنى : يقذفون من جوانب السماء إذا قصدوا الصعود إليها .

(دُحُوراً) الدحر الطرد و الإبعاد[3]، يقال دحره دحورا ، و دحورا ، بفتح الدال و ضمها ، وقرئ بهما .

(وَاصِبٌ) الوصب السقم اللازم[4] ، وقد وصب فلان فهو وصب ، فالواصب اللازم الدائم ، ومنه قوله تعالى (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً) أى : حق الإنسان أن يطيعه دائما في جميع أحواله .

---

(1) نفس المصدر ص :٤٧٣
(2) نفس المصدر ص : ٣٩٧
(3) نفس المصدر ص : ١٦٥
(4) نفس المصدر ص : ٥٢٤

(خَطِفَ) الخطف و الاختطاف الاختلاس بالسرعة يقال : خطف بكسر الطاء يخطف بفتحها، و خطف بفتحها يخطف بكسرها وقرئ بهما[١]، فهو أخذ بخفة و سرعة على غفلة المأخوذ منه .

(فَأَتْبَعَهُ) يقال : أتبعه(٢) إذا لحقه ، على أنه هنا في معنى الثلاثي فيتعدى لواحد ولذا قرئ (فَأَتْبَعَهُ) بهمزة وصل ، من تبع(٣) .

(شِهَابٌ ثَاقِبٌ) الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، و من العارض فى الجو(٤)، والمراد به هنا : العارض المعروف في الجو الذي يرى كأنه كوكب منقض من السماء .

و(ثَاقِبٌ) الثاقب المعنى الذى يثقب[٥] بنوره وإصابته ما يقع عليه ، كأنه ثقب الجو بضوئه ، فثقوبه ضوءه .

وقد قرئ سبعية (بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) بتنوين (زِينَةٍ) و نصب (الْكَوَاكِبِ) فتكون الزينة إما مصدر فاعله محذوف، والتقدير : زين الله الكواكب ، لكونها مضيئة حسنة في أنفسها ، أو أن الزينة اسم لما يزان به كالليقة ، اسم لما تلاق به الدواة يقال : لاقت الدواة ليقا : لصق المداد بصوفها .

---

(١) نفس المصدر ص : ١٥٠

(٢) المفردات للراغب ص : ٧٢

(٣) نفس المصدر ص : ٢٦٧

(٤) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص٧١.

(٥) المفردات للراغب ص : ٧٩.

فتكون (الْكَوَاكِبِ) على هـذا منصوبـة بإضمـار (أعنـى) أو تكون بدلا من (سماء الدنيا) بدل اشتمال أى: كواكبـها ، أو مـن محـل (بِزِينَةٍ).

والمعنى : زينا السـماء الدنيـا بـأن زينـا الكواكـب فيـها حـين ألقيناها في منازلها و جعلناها ذات نور .

وقـرئ سـبعية بتنويـن (زينَـةٍ) كذلـك ، إلا أنـه قـد خفـض (الْكَوَاكِبِ) وعليه فإنه يراد بالزينة ، ما يزان به ، والكواكـب بـدل أو بيان لها ، والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب .

وقرئ سبعية بإضافة (زينة) من غير تنوين إلى (الْكَوَاكِبِ) .

وهى تحتمل ثلاثة أوجه .

الأول:أن تكون إضافة أعم إلى أخص ، فتكون للبيان ، نحو ثوب خز .

الثانى: أنها مصدر مضاف لفاعله ، أى : بأن زينت الكواكـب السـماء بضوئها .

الثالث : إنه مضاف لمفعوله ، اى بـأن زينـها الله ، بـأن جعلـها مشـرقة مضيئة فى نفسها[1] .

وحال هذه القراءات في إفادة المعنى للآية ، سواء كانت الإضافة بيانيـة أو بدليـة ، أن الكواكـب في السـماء الدنيـا ، و إن اختلفـت

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ج٩ ص ٢٩١، ٢٩٢.

حركاتها و تفاوتت سرعتها أو تباطأت، لجواز أن تكون في أفلاكها، وأفلاكها في السماء الدنيا، وهى ساكنة ولها من الثخن ما يمكن معه نضد تلك الأفلاك المتحركة بالحركات المتفاوتة وارتفاع بعضها فوق بعض[1].

ومدلول التركيب و القراءات يفيد هذا المعنى، خلافا لقول الفلاسفة، القائلين:

أن القمر وحده في السماء الدنيا، وعطارد في الثانية، والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة، والمريخ في الخامسة والمشترى في السادسة، وزحل في السابعة، والثوابت في فلك فوق السابعة الخ، وهو قول لا يقوم عليه دليل، ولا برهان يفيد اليقين، وما روى من أن الكواكب في قناديل معلقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور، وتلك السلاسل بأيدى الملائكة عليهم السلام فمما يكذبه الظاهر من مدلول الآية وهو مما لا أصل له.

إذعدم وجود سلاسل تمسك بها، أدعى لبيان كمال قدرة الخالق، سبحانه وتعالى ولاريب في وجود ناموس أوجده الله سبحانه وتعالى لها، لامساكها و تسييرها كما يشاء، لقوله تعالى (وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[2].

---

(1) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص٦٨.
(2) سورة الأعراف، آيه: ٥٤.

وقرئ سبعية (لا يَسَّمَّعُونَ) بتشديد السين و الميم ، وبسكون السين و فتح الميم .

ولا فرق بين القراءتين من حيث المعنى ، إلا المبالغة في قراءة التشديد ، والتأكيد على نفى جميع وجوه احتمال السماع .

إذا كل من(فعل) و(افتعلت) في التعدى بـ (إلى) سواء وقرئ سبعية (يُقْذَفُونَ) للمفعول(١) ، و للفاعل .

وقرئ سبعية (دُحُوراً)(٢) بضم الدال، وبفتحها، والقراءة بالفتح اظهر في حصول المعنى ، لأنه يدل على أن الدحر يفعل بهم ، كطهور لما يتطهر به ، وغسول لما يغسل به يقول الإمام الألوسى : وهو على هذه القراءة - بعنى - قراءة -الفتح - أظهر، لأن (فعولا) بالفتح بمعنى ما يفعل به كثير كطهور وغسول ، لما يتطهر ويغسل به(٣).

وقرئ سبعية (خَطِفَ) بفتح الخاء وكسر الطاء مخففة وقرئ بهما مع تشديد الطاء ، وبكسرهما مع التخفيف وكسرهما وتشديد الطاء(٤).

و(إنا) في قوله (إنا زينا) للتعظيم ، أى : زينا بعظمتنا التى لا

---

(١) قراءة العامة مبنيا للمفعول ، وللفاعل من طريق محبوب ، عن أبى عمرو ، كما هو في البحر المحيط لأبى حيان ج٧ ص٣٥٣

(٢) الدر المصون للسمين ج٩ ص٢٩٣، ٢٩٤.

(٣) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص ٧٠.

(٤) الدر المصون للسمين الحلبى ج٩ ص٢٩٤، ٢٩٥.

تدانى ، هذه السماء القربى منكم والتى ترونها مما يليكم ، بالنجوم النيرة البراقة المتوقدة الثابتة في محلها - قارة أو مارة - المرصعة في السماء ترصيع المسامير الزاهرة كزهر النور المبثوث في خضرة الرياض الناضرة .

و نصب (حِفْظًا) على المصدرية ، وذلك بإضمار فعل ، و التقدير : حفظناها حفظا ، ويمكن أن يكون معطوفا على (زِينَةٍ) باعتبار المعنى ، فإنه معنى مفعول له ، كأنه قيل : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء و حفظا لها ، و يمكن أن يكون مفعولا من أجله على تقدير وجود الواو ، و العامل فيه (زَيَّنَّا) بنية تأخيره والتقدير : لحفظها زيناها[1] .

و الربط المعنوى بين الألفاظ في الجمل أقوى و ألصق بالمضمون الذى سيق الكلام من أجله من الربط عن طريق التقدير ولذا يصبح (مِّن كُلِّ) صفة لـ (حِفْظًا) ويفيد بذلك عموم الاستمرار بالحفظ ، و ليس استمرار العموم للحفظ و جملة (لا يَسَّمَّعُونَ) منقطعة عما قبلها، وليست صفة (شَيْطَانٍ مَّارِدٍ) إذا يكون التقدير : من كل شيطان مارد غير سامع أو مستمع ، وهو فاسد ، وكذلك يبقى المحذور على القول بأنها حال ، إذا الحال وصف وقيل : يصح الوصف لأن المنفى هنا ليس السماع المطلق حتى يلزم ما قالوه في المنع ، إذا

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ج٩ ص٢٩٢.

تعدى الفعل (لا يَسَّمَّعُونَ) بـ (إلى) مع تضمينة معنى الإصغاء يصير به المعنى : حفظناها من شياطين لا تنصت لما فيها إنصاتا تاما تضبط به ما تقوله الملائكة(١) .

و قيل : لا سبيل إلى جعل هذه الجملة (لا يَسَّمَّعُونَ) علة للحفظ على أن يكون الأصل : لئلا يسمعوا ، فحذفت اللام كما حذفت في قولهم : جئتك أن تكرمني فبقي : أن لايسمعوا ثم بحذف (أن) و يهدر عملها ، كما في قوله من قال: ألا أيها الزاجرى أحضر الوغى .

لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فأما اجتماعهما - يعنى في الحذف فمن أنكر المنكرات التى يجب تنزيه(٢) ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها .

و قيل : لا يصح أن تكون جوابا لسؤال مقدر : لم تحفظ من الشياطين ؟ وذلك لعدم استقامة المعنى.

أما إن كانت الجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، في جواب فما حالهم بعد الحفظ و أن يكون السؤال عما يكون عند الحفظ ، وعن كيفية الحفظ ؟

وجواب الأول قوله (لا يَسَّمَّعُونَ) أى : لا يتمكنون من السماع

---

(١) حاشية الشهاب، على البضاوى، ج٧، ص٢٦١.
(٢) تفسير أبى السعود ج ٧ ، ص١٨٥.

، وقوله (وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ) جواب عن الثانى والقول المقطوع به هوترابط جمل القرآن بعضها ببعض من جهة المعنى، ولذا فالاستئناف البيانى هنا هو الأليق و الأدق للنظم القرآنى ، ولا يمكن قطع جملة (لا يَسَّمَّعُونَ) و(يُقْذَفُونَ) قطعا مطلقا من كل وجه ، عما قبله .

و(دُحُوراً) منصوب على أنه علة ، أى مفعول من أجله والتقدير: للدحور أوهو منصوب على المصدرية لـ (وَيُقْذَفُونَ) و التقدير : يدحرون دحورا ، أو : يقذفون قذفا ، فالتجوز إما في الأول وإما في الثانى ، وذلك لتنزيل المتلازمين منزلة المتحدين ، إذ الدحر والقذف متلازمان ، كقعدت جلوسا ، أو جلست قعودا أو هو مصدر لمقدر ، أى : يدحرون دحورا .

وقيل : هو في موضع الحال ، أى : زوى دحور ، أو مدحورين ، و على هذا فهو مصدر مؤول باسم المفعول ، أو هو جمع داحر، نحو : قاعد وقعود فيكون حالا بنفسه من غير تأويل[1].

و قيل : يجوز أن يكون منصوبا بنزع الباء عنه ، جمع دحر وهو ما يطرد به وذلك على قراءة فتح الدال ، أو مصدرا كالقبول والصبور، أو صفة له بمعنى: قذفا دحورا [2] .

---

(1) الدار المصون للسمين الحلبى ج٩ ، ص٢٩٣ ، ٢٩٤

(2) نفس المصدر باختصار وزيادة ، ج٩ ، ص٢٩٤

والذى يجمع كل هذه الوجوه ، مع التدليل على المعنى المراد من كل وجوه التدليل ، كونه حالا، إذ الحال يشمل كل هذه المعانى .

و(من) من قوله (إلا من) منصوب على الاستثناء من واو (لا يَسَّمَّعُونَ) وهو بهذا متصل و المعنى : إن الشياطين لا يسمعون الملائكة إلا من خطف الخطفة .

و يجوز أن يكون منقطعا ، و(من) على هذا شرطية جوابها (فأتبعه) بدليل تصدير الجملة بالفاء ، لكنه وجه ليس بذاك أو موصولة وخبرها (فأتبعه) .

قال الإمام الحلبى : وقد نصو ا على أن مثل هذه الجملة تكون استثناء منقطعا كقوله (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ)[1].

ويجوز أن يكون (من) مرفوع المحل بدلا من ضمير (لا يَسَّمَّعُونَ) والمعنى : لا يسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خطف الخطفة .

قيل : وهذا الوجه أحسن من غيره ، لأنه كلام غير موجب[2] .

وإيثار ذكر الكواكب هنا دون النجوم بالزينة ، من باب ذكر الأخص دون الأعم .

---

(1) سورة الغاشية ، آية ٢٢

(2) الدر المصون للسمين / ٩ / ٢٩٤

وإيثار المصدر في قوله (حفظا) دون الفعل أو مشتقاته ، لشمولية الحفظ من كل الوجوه ، وأنها محفوظة بما ذكر وغير ما ذكر، إذ المصدر يدل على المادة ومتعلقاتها ، والذى نبه إلى هذا المعنى قوله بعد (مارد) أى: مجرد عن الخير عات في كل شر ، وهو من باب مقابلة العموم للعموم .

وإيثار ذكر حرف (إلى) دون غيره ، أو دونه ، في قوله (لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الْأَعْلَى) لأن دلالة موضوع (إلى) الانتهاء والغاية ، والفعل - سمع - يتعدى وذكر التضمين في الفعل كما ذهب إليه بعض المفسرين[1] ، لايوصل إلى علة ذكر (إلى) والغاية من وضعه هنا.

إذ التضمين في الفعل بالإصغاء يدل على نفى الإصغاء الذى هو الإدراك ، وإذا انتفى الإصغاء والإدراك انتفى السمع أو التسمع من باب أولى .

ولذا قيل : لايحتاج في مثل هذا التركيب إلى اعتبار التضمين ، إذ التفعل فى قراءة التشديد مؤذن بالطلب، فتسمع بمعنى طلب السماع ، وهذا مشعر بالإصغاء ، لأن طلب السماع يكون بالإصغاء .

فنفى التسمع يستلزم منه نفى الإصغاء ، وإذانفى التسمع نفى

---

(١) البيان في غريب القرآن ، لابن الانبارى / ٢ / ٣٠٣

السماع، ونفى السماع على قراءة التخفيف يستلزم منه نفى الإصغاء والإدراك ، وإن كان لايستلزم نفى التسمع ، إذ نفى الأول وما يلزمه هو المطلوب .

بقى إفادة الطلب في قراءة التشديد ، ولايمنع أن أن تكون دالة على المبالغة فى نفى السماع ادعاء ، أو بسب شدة حرصهم للسماع عند بلوغهم السماء مع خوفهم الشديد من الرجم ، وهم في هذه الحالة فيحصل لهم اندهاش عن طلب السماع ، فيطلبون الاستماع .

فالقول بالتضمين في أى من القراءتين فيه نظر ، وإن كان يدهش من جهة العرض ، وتخريج النص به

والذى أميل إليه في ذكر حرف (إلى) هنا مع وصول الفعل (سمع) إلى ما بعده بنفسه ، وإيثار هذا الحرف على غيره ، إنما هو بالنظر إلى موضوع هذا الحرف والجملة التى وضع فيها .

فموضوعه : الانتهاء بالغاية وبحده للجوانب الست ، فهو يحمل الغاية إثباتا أو نفيا ويكون ذلك بحدود الجهات الست .

وإذا كان ذلك كذلك ، فسر وجوده هنا ، مع إمكان وصول الفعل بنفسه ، لإفادة نفى السماع أو الاستماع من قبل الشياطين من كل جهات المسموع ، فهم لايمكنهم السماع من أى جهة ، والزم وجوه هذا الحرف إضافة غلى موضوعه ، كون المسموع من قبل جماعة في

مكان وسط مرتفع ، وهو ما يمكن من السماع من أى الجهات الست ، إذ هم جماعة الملأ الأعلى ، فجئ بهذا الحرف لعموم نفى السماع من كل الجهات وهو وجه يدل على كمال هذا التركيب المعجز ، إذ لو قيل: لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى) لصح ذلك ، لكن لاينتفىعنه ما انتفى بوجود(إلى) وما كان سيحصل للنص الإحكام والإتقان المتفق له الأن لغة وتركيبا وحالا.

فجاء الحرف هنا في مكان لايمكن زحزحته عنه ، إذ لو لم يكن لكان ذلك مخلا ببلاغة النظم القرآنى .

وإيثار الجملة الأسمية دون الفعلية، ن قوله (وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ) لإفادة الثبوت والاستمرار ، وأن هذا العذاب لازم ومستمر لاينقطع ، وهو عذاب الأخرة ، فهو دائم لازم ، وخاص بمن فعل هذا الفعل ، وهو استراق السمع من الملأ الأعلى والذى يعرب عنه تقديم الخبر (لهم) فهو عذاب مستمر ، ومن النوع الخاص إذ الكلام عن الشياطين المخلوقين من نار، فلهم عذاب موجع يتناسب مع طبيعتهم وإيثار(الخطفة) للتدليل على قلة المختلس من ذلك ، وأنه بمنزلة المعدوم ، والذى يؤكد القلة ، إفراد الضمير من قوله (من خطف) ولو قدر اختلاس هذا القليل فإن شعلة النار من الكوكب تنقض على من اختلس أثر سماعه حين سماعه سواء لا يتخلف ، لأن النظم يدل على أنها تتبعه بغاية ما يكون من السرعة حتى كأنه يسوق نفسه ويتبعها له

، كأن يتخلف .

المعنى:

يدلل الله سبحانه وتعالى على جلال عظمته التى لا تدانى بخلقه وتزيينه للسماء الدنيا بالكواكب و النجوم النيرة ولم يكن هذا الخلق وذينك التزين اتفاقى، بل مقصود منه الزينة و الجمال ، ويحفظ الله بها ما كان من شأن الملأ الأعلى، بأن لا يسترق من قبل الشياطين الذين يسترقون السمع ، فجعل لهم من هذه الكواكب شهابا يرمون بها من كل جهة ، إذا ما صعدوا للسماع ، فيدحرون بهذه الشهب ولهم عذاب متواصل موجع إيجاعا كثيرا ، ثابت عليهم يوم القيامة .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- لم يخلق الله سبحانه وتعالى خلقا عبثا ، بل كل مخلوق لحكمة بالغة .

٢ - جواز تزين الأشياء التى بحوزتنا ، لأنه أدعى للبهجة والسرور ، و الله جميل يحب الجمال .

٣ - بيان أن الشياطين لوجود القدرة لديهم ، وقد اقدرهم الله على ذلك خلقة ممنوعون من الصعود إلى السماء واسترق السمع ، والذى يخالف هذا عاصى يستحق العقاب .

٤- خلق الله الكواكب و النجوم لفوائد :

١- الزينة لأهل السماء الدنيا ، كى تسرهم حين النظر اليها .

٢- إنها رجوما للشياطين ، الذين يسترقون السمع .

٣- يهتدى بها في ظلمات البر و البحر ، فيعرف من خلالها الجهات .

قول الله تعالى ذكره :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ *

تهافت حجج منكرى التوحيد و المعاد

لما كان المقصود من هذه السورة بيان أصل الأصول وهو التوحيد والنبوة والمعاد ، وقد قامت البراهين و الأدلة على كمال قدرته و علمه سبحانه، من الأفعال الهائلة ، وبديع حكمته اللازم منه إثبات ألوهيته ، فكان ما دونها من الأفعال أولى ، ولذا كان لزاما إثبات الحشر و النشر بعد الموت والذى اخبر به القرآن، الذى حرسه عن تلبيس الشياطين بزينة الكواكب ، التى أنشأ منها الشهب الثواقب ، والذى كذب به أوالئك المخاطبين المكابرين قال تهكما بهم[1].

(فَاسْتَفْتِهِمْ) أى : استخبرهم ، بمعنى : سلهم أن يتفتوا بأن يبينوا لك ما تسألهم عنه من إنكارهم البعث وأصل الاستفتاء الاستخبار عن أمر حدث ، ومنه الفتى لحداثة سنه[2] .

والضمير فيه عائد على مشركى مكة ، الذين كان فيهم من هو

---

(١) نظم الدرر للبقاعى ج٦، ص٢٩٤ ، ٢٩٥

(٢) روح المعانى للألوسى م٨ ، ج٢٣ ، ص٧٥

شديد البطش و البأس .

(خلقنا) الخلق أصله التقدير المستقيم ، ويستعمل في إبداع الشئ من غير أصل ولا احتذاء كما قال الله تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ [١]) أى ابدعهما، بدلالة قوله (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) [٢] والخلق الذى هو الإبداع لا يكون إلا لله تعالى [٣].

(أشد) أقوى خلقة ، وأصله من الشد ، وهو العقد القوى يقال : شددت الشئ قويت عقده قال تعالى (وَشَدَدْنَا أَسْرَهُم) [٤] و الشدة تستعمل في العقد ، وفى البدن وفى قوى النفس ، وفى العذاب قال تعالى (وكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً) [٥].

(لازب) اللازب الثابت الشديد الثبوت ، ويعبر باللازب عن الواجب ، ولذا فهو لازم [٦].

فاللازب هو شديد اختلاط بعضه ببعض فالتصق وضمر وتضايق ، وتلازم بعضه لبعض ، ولذا يقال : لازب ولازم ولاتب ، فهو الطين الحر اللزق .

(عجبت) العجب والتعجب حالة تعرض الإنسان عند

---

(١) سورة النحل ، آيه ٣.
(٢) سورة الأنعام، آيه ١١١.
(٣) المفردات للراغب ، ص ١٥٧.
(٤) سورة الإنسان، آيه ٢٨.
(٥) سورة فاطر ، آيه ٤٤.
(٦) المفردات للراغب ، ص ٤٤٩.

الجهل بسبب الشئ[١] فهو تغير النفس بما خفى فيه السبب ، فما لم تجر العادة بحدوث مثله[٢] ، وروعة تعتريها عند استعظام الشئ .

ذكروا من التذكير و التذكرة ما يتذكر به الشئ ، وهو أعم من الدلالة و الأمارة قال الله تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ[٣]) والمعنى : إذا وعظوا من أى واعظ كان بشئ هم به عارفون ، يدلهم على البعث كتذكيرهم بكمال قدرته سبحانه لا يعلمون بموجب التذكير .

(آية) أصل آية من التأى الذى هو التثبت والإقامة على الشئ ، قيل هى فعله وحق مثلها أن يكون لامة معتلا دون عينه ، نحو حية ونواة ، لكن صحح لأمة لوقوع الياء قبلها نحو : راية ، وقيل : فعلة إلا أنها قلبت كراهة التضعيف كطائى في طئ .

و قيل هى فاعلة ، وأصلها آيية فخففت فصار آية وذلك ضعيف ، لقولهم فى تصغيرها : أيية ، ولو كانت فاعلة لقيل : أوية[٤].

---

(١) نفس المصدر، ص ٣٢٢.
(٢) نظم الدرر للبقاعى ج٦ ص ٢٩٦.
(٣) سورة المدثر، آيه ٥٠.
(٤) المفردات للراغب، ص ٣٣.

و الآية تطلق ويراد بها معانى :

١- العلامة ، ومنه قوله تعالى (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ)[١].

٢- الدليل ، ومنه قوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ[٢])

٣- العبرة، ومنه قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)[٣]

٤- المعجزة ، ومنه قوله تعالى (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ) أى : من معجزة واضحة [٤].

والآية هنا يمكن أن يراد بها كل هذه المعانى ، وحملها على الأعم أولى .

(يَسْتَسْخِرُونَ) السخرية و السخرية فعل الساخر قال الله تعالى (فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا)[٥] وسخريا وسخرت منه و استسخرته للهزء منه ، ويقال : رجل سخرة لمن سخر وسخرة لمن يسخر منه[٦] .

والسين الأولى هنا إما أن تكون لحصول المبالغة في السخرية أو

---

(١) سورة البقرة ، آيه ٢٤٨.
(٢) سورة الروم، آيه ٢١.
(٣) سورة الشعراء، آيه
(٤) سورة البقرة، آيه ٢١١.
(٥) سورة المؤمنون، آيه ١٠١.
(٦) المفردات للراغب ، ص ٢٢٧.

للطلب، بمعنى : أن يطلب بعضهم من بعض أن يسخر من الآية .

(سحر) مادة السحر التى وردة في القرآن الكريم ستين مرة ، تعطى فيما تعطى من المعانى : الغرابة والخروج على المألوف بما يجذب الانتباه ، ويثير العجب ومنه القول المأثور (إن من البيان لسحرا) [١] ، والسحر له أنواع كثيرة ، فمنه التخييلات والخداع والمشعبذ ومنه ما يدق ويلطف[٢] .

ووصف السحر بـ (مبين) لبيان مبالغتهم في اعتقادهم بأنه سحر، أى : ظاهر سحريته ، لأن (مبين) هنا من باب يبين ، فهو بين ووصفهم القرآن أو آيات القرآن يالسحر مغالطة شنيعة وافتراء فاضح ، وهو حجة الضعفاء التى لا تستند إلى دليل .

وقرئ (أمن خلقنا) بتخفيف ميم (آمن) وعليه فليس فيها (أم) وهو استفهام تقريرى .

وقرئ (لازب) لازم بالميم بدل الباء[٣]، والميم والباء متقاربان في المخرج فكل منهما من الشفتين .

وأكثر أهل اللغة على أن الباء في اللازب بدل من الميم .

وقرئ سبعية (عجبت) بضم التاء ، وقد أنكر بعضهم هذه

---

(١) ذكره العجلونى فى شكف الخفاء /١/ ٢٥٤.
(٢) المفردات للراغب ، ص ٢٢٦.
(٣) الدر المصون للسمين ج٩ ص ٢٩٥.

القراءة ومنهم شريح القاضى، وقال : إن الله تعالى لا يعجب من شئ وإنما يعجب من لا يعلم [1].

وإنكاره للقراءة المتواترة ليس مقبولا .

وقد أولها بعض العلماء : بأن ذلك من باب الفرض ، أى لو كان العجب مما يجوز على لعجبت من هذه الحال .

وقيل : هو على سبيل التخييل ، فيجعل الله تعالى كأنه لإنكاره لحالهم يعدها أمرا غريبا ، ثم يثبت له العجب منها تخييلا .

فعلى الأول تكون استعارة تخيلية تمثيلية ، وعلى الثانى تكون مكنية وتخيلية .

وقيل هو مجاز مرسل ، فيحمل العجب على الاستعظام ، وهو رؤية الشئ عظيما أى : بالغا الغاية في الحسن أو القبح ، والمراد هنا رؤية ما هم عليه بالغا الغاية في القبح ، وليس استعظام الشئ مسبوقا بانفعال يحصل في الروع عن مشاهدة أمر غريب .

وقيل : يؤول على أنه صفة فعل يظهرها الله تعالى في صفة المتعجب منه ، من تعظيم أو تحقير ، حتى يصير الناس متعجبين منه .

والمعنى : بل عجبت من ضلالتهم وسوء نحلتهم وجعلتها

---

(١) خرجه الحاكم فى مستدركة، كتاب التفسير/ ٢/ ٤٣٠.

للناظرين فيها ، وفيما أقترن بها من شرعى وهداى متعجبا[١].

وقيل : ضمير (عجبت) للنبى ، والكلام بتقدير القول ، أى : قل بل عجبت .

وقال الإمام الألوسى: وعندى لو قدر القول بعد (بل) كان أحسن، أى : بل قل عجبت .

ثم قال : والذى يقتضيه كلام السلف ، إن العجب فينا انفعال يحصل للنفس عند الجهل بالسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وفى الله تعالى معنى يليق لذاته عز وجل ، هو سبحانه أعلم به فلا يعينون المراد والخلف يعينون[٢]، قال: أبو زكريا الفراء : والعجب وإن أسند إلى الله فليس معناه من الله ، كمعناه من العباد .

ألا ترى أنه قال (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ) [٣] وليس السخرى من الله كمعناه من العباد ، وكذلك قوله (يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) [٤] ليس ذلك من الله كمعناه من العباد [٥] .

وقول السلف هو الذي عليه أدلة السنة الصحيحة ، إذ قد روى عن أبى هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ (عجب ربنا من أقوام

---

(١) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص ٧٧.
(٢) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص ٧٧.
(٣) سورة التوبة: ٧٩.
(٤) سورة البقرة، آيه ١٥.
(٥) معانى القرآن للفراء، ج٢، ص٣٨٤.

يقادون إلى الجنة في السلاسل - من الحديث[1])

ولا ريب أن رسول الله ﷺ هو أعلم الخلق بالله تعالى ولا يصفه إلا بما يجوز أن يوصف به على سبيل الكمال وما يليق به سبحانه .

فالواجب إثبات الصفة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، من غير توهم تشبيه أو تمثيل بخلقه .

على أن يكون كل من الخالق والمخلوق يأخذ معنى عاما كليا من الصفة في الذهن أما خارج الذهن فهذا على ما يليق به ، وهذا على ما يليق به، ومالزم عن الصفة من الجهل بالشئ المتعجب منه لا ينسحب في حقه سبحانه ، فتثبت الصفة له ، مع نفى تلك الإلزامات ، لحصول البون بين إطلاقها عليه وإطلاقها على المخلوق [2].

وقرئ (ذكروا) بكسر الكاف مخففة .

والفاء في قوله (فاستفتهم) ، هى التى أفصحت عن شرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والمعنى : إذا كان لله تعالى من المخلوقات ما سمعت ، أو إذا عرفت ما مر، فاستخبر مشركى مكة ، واسألهم على سبيل التبكيت والتقريع (أهم) أشد خلقا ، أى : أقوى خلقة ، وأمتن بنية ، أو أصعب خلقا وأشق إيجادا فالاستفهام في قوله (أهم)

---

(١) الحديث خرجه أبو داود ، برقم ٢٦٧٧ ، وابن حبان في صحيحه برقم ١٣٤

(٢) ذكر هذه الرواية عن جناح بن حبيش ، الإمام أبى حيان الأندلسى في البحر المحيط / ٧ / ٣٥٥

تقريرى أو إنكارى ، وتقريره إثبات المعاد بما ذكر ، وإنكاره رد استحالته ، وفى كل منهما معنى التبكيت والتوبيخ والتقريع .

وقوله (أمن خلقنا) بتشديد الميم ، وهى قراءة العامة ، وأصله (أم من) وهى (أم) المتصلة ، وهى التى تقع بعد همزة التسوية ، ولا جواب لها، وسميت متصلة ، لأن ما بعدها لا يستغنى عما قبلها[1] .

والمعنى : ليس هؤلاء المنكرين للبعث ، والمشركين معه غيره ، أكبر وأعظم وأشد خلقا، من الخلق الذي ذكر، من الملائكة والسموات والأرض والجن ، بل هم خلق ضعيف ، في حاجة إلى قوة تحفظهم ، ولا حافظ لهم إلا بإخلاصهم لله بالتوحيد وأما على قراءة من خفف الميم في (أمن) و(من) مبتدأ خبره محذوف والتقدير : أمن خلقنا أشد[2].

وبل في قوله (بَلْ عَجِبْتَ) للإضراب الانتقالى ، والتقدير: هم لا يقرون ولا يجيبون بما هو الحق ، بل مثلك ممن يذعن ويتعجب من تلك الدلائل ، أو إضراب إبطالى ، والتقدير : لا تستفتهم فإنهم معاندون لا ينفع فيهم الاستفتاء ولايتعجبون من تلك الدلائل ، بل مثلك ممن يتعجب منها .

وجملة (وَيَسْخَرُونَ) خبر المبتدأ محذوف ، والتقدير : وهم

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطى / ٦١٦

(٢) الدر المصون للسمين ج ، ص٢٩٥

يسخرون من أمر البعث، أو:وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث .

وجوز بعضهم أن يكون جملة (وَيَسْخَرُونَ) حالا[١]

وإيثار (فَاسْتَفْتِهِمْ) دون : فقررهم ، مثلا ، لأن الاستفتاء طلب الفتيا ، وطلب الجواب عن الخبر من منكريه أدعى لإقرارهم به من مجرد طلب إقرارهم به.

وإيثار (من) من قوله (أمن خلقنا) دون (ما) قيل : لتغليب العقلاء على غيرهم وذلك بناء على ما تقرر عند كثير من علماء العربية ، من أن (من) لأولى العقل وما لغير العقلاء .

وهذه القاعدة غير مطردة ، لأنه قد أطلق (ما) على العقلاء في بعض مواضع القرآن ، وأطلق (من)على غير العقلاء في بعض المواضع ، ولذا قيل : إن القاعدة من باب التغليب وذهب الحذاق من أهل العربية إلى أن (من) للذوات و(ما) للصفات ، ويستلزم منها الذات ، و(ما) أعم من (من).

وهذا التقويم للقاعدة مطرد ، فقوله تعالى (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ)[٢] بالتعبير بـ (ما) هنا ليس لأنهن غير عاقلات ، وإنما لبيان أن المراد من نكاح النساء هو صفاتهن ليس مجرد ذاوتهن ،

---

(١) روح المعانى للألوسى م٨ ، ج٢٣، ص ٧٥.
(٢) سورة النساء، آيه ٣.

فلذا كان التعبير بالصفة (ما) دون مجرد الذات (من)، وكذا في قوله تعالى (أو ما ملكت أيمانهم) [١] لما كان المقصود في الإماء الصفة دون مجرد (الذات) عبر هنا بـ (ما) ، ولذا كان التعبير بها أدق وأحسن في قوله (قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) [٢] وهى بهذا مطردة في كل موضع .

وإيثار (طِينٍ لازبٍ) على تراب أو صلصال ، كما ذكر فى مواضع أخرى ليكون ذلك مناسبا وشهادة عليهم بالضعف والرخاوة ، إذ ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة ، وفى هذا توهين من شأنهم مقارنة بما ذكره من خلق ذى قوة ، وعظم في الجرم ، مع انقيادهم وطاعتهم له سبحانه .

المعنى :

استخبريا محمد واطلب جوابا من هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث والنشور بعد الممات ، أخلقهم أشد من هذا الخلق الذي عدناه ، من الملائكة والشياطين والسموات والأراضين والكواكب والنجوم .

وذلك على سبيل توبيخهم وتقريعهم ، إذ لايقاس هذا الخلق العظيم الجرم ، بخلقهم الضعيف ، إذ أصلهم من تراب رخو مهين ، ثم

---

(١) سورة المؤمنون ، آية
(٢) سورة الكافرون كاملها.

من ماء أشد مهانة، فأنى لهم أن يستهينوا ويسخروا بما جاءهم من الآيات الدالة على كمال قدرة الله وعظمته من خلال تذكيره لهم بخلقه العظيم، وأن الخالق لهذا الخلق قادرعلى إعادته مرة أخرى بعد الموت بل هو أهون عليه ، ولذا فليس لهم من جواب لرد هذه الحجج

إلا المغالطة والافتراء على الله تعالى ، فازدادوا غضبا على غضب .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- جواز طلب جواب عن شئ معلوم لدى الطالب ، وذلك على سبيل التوبيخ لظهور العلم به .

٢- جواز وقوع التعجب من الله تعالى ، على قراءة ضم التاء ، وذلك على ما يليق به ، من غير تشبيه تعجبه بتعجب المخلوق .

٣- وجوب التذكير بآيات الله المقروءة ، لتضمنها التذكير بأياته المحسوسة ،وأن يستمر هذا التذكير بلا انقطاع .

٤- وجوب الصبر والتحمل من الداعية ممن يدعوهم إذ قد يصدر منهم ما يشين .

٥- التذكير ببيان أن الكفار المنكرين للبعث دأبهم المغالطة وتمويه الحقائق .

قول الله تعالى ذكره :

أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون * أوآباؤنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون * فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون * وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون

استبعاد الكفار للبعث ، والرد عليهم

لما كان السحر في اعتقادهم أنواع ، وهو عندهم أمور مموهة لا حقائق لها خصوا البعث بالإنكار والاستبعاد بعد الموت ، إعلاما بأنه أعظم مقصود بالنسبة إلى السحر عندهم ثم عطفوا عليه ما هو موجب عندهم لشدة الإنكار وهو رجوعهم مرة أخرى ، بعد أن صاروا ترابا وعظاما .

(لمبعوثون) : البعث أصله : إثارة الشئ وتوجيهه ، يقال بعثته فانبعث ، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فقوله (والموتى يبعثهم الله) [١] أى : يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة [٢].

(داخرون) يقال : ادخرته فدخر ، أى : أذللته فذل والذليل الحقير، والمعنى : تبعثون صاغرون أذلاء حقراء [٣].

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٣٦
(٢) المفردات للراغب ، ص٥٢
(٣) نفس المصدر ، ص١٦٦

(زجرة) الزجر:[١] طرد بصوت ، يقال : زجرته فانزجر، ولذا يقال:الزجرة الصيحة ، والمقصود بها هنا النفخة الثانية في الصور (يا ويلنا) أى : يا هلاكنا أحضر ، فهذا أوان حضورك فويل : تستعمل على التحسر ، وتستعمل على أنها واد في جهنم ، وذلك عن طريق الخبر ،لاعن طريق اللغة ، ولا مانع من حمل الكلمة على كل منهما.

(الدين)من دان يدين ، إذا ذل وخضع ، والدين هنا بمعنى الجزاء، والمعنى :هذا اليوم الذي ندان فيه ، أى : نجازى فيه بأعمالنا[٢].

(الفصل): إبانة أحد الشيئين من الأخر، حتى يكون بينهما فرجة ، يقال فصل القوم عن مكان كذا ، وانفصلوا فارقوه[٣] .

(ويوم الفصل) ، هنا معناه : اليوم يبين الحق من الباطل ويفصل بين الناس بالحكم ، وهو القضاء والفرق بين المحسن والمسئ ، وتمييز كل عن الأخر .

وقرئ سبعية (أءذا متنا) بتحقيق الهمزتين وتسهيل الثانية ، وإدخال ألف بينهما على الوجهين ، فالقراءات أربعة[٤] .

وقرئ سبعية (أو أباءنا) بفتح الواو وسكونها فمن قرأ بفتحها فعلى أنها همزة استفهام دخلت على واو العطف ، ومن قرأ

---

(١) نفس المصدر ، ص٢١١
(٢) روح المعانى للألوسى م٨ ج٢٣ ص٧٩ بتصرف
(٣) المفردات للراغب ص٣٨١
(٤) حاشية الجمل على الجلالين م٣ ، ص٥٣٢

بسكون الواو ، فعلى أنها (أو) المقتضية للشك وكل من القراءتين قريب المعنى من الأخر ، إذ الاستفهم طلب الفهم لأمر يجهل شأنه، مع استبعاده، والشك في كل من طرفيه جهل ،والقراءة الأولى دلالتهاأعم ، وهى بهذا أبلغ من القراءة الثانية .

وقرئ سبعية (نعم) بفتح العين وكسرها ، وهما لغتان وهى كلمة للإيجاب، غير أن القراءة بالفتح من لفظ النعمة ففيها مشاكلة لفظية ، ولذا فصححوا القراءة بالكسر فجعلوها أفصح ، لعدم المشاكلة مع النعم[1].

وعلى قراءة فتح الواو من قوله (أوأباءنا) وجوه : الأول : إنه مبتداء حذف خبره لدلالة (إن) من قوله (إنا لمبعوثون)عليه، والمعنى: أو أباءنا الأولون مبعوثون أيضا ، والجملة معطوفة على الجملة قبلها .

الثانى: أن يكون معطوفا على الضمير المستتر في خبر (إن) ، واشترط فى ذا القول الفصل بين الضمير والمعطوف ، وقد استغنى بالفصل هنا بهمزة الاستفهام ، إذ الهمزة في هذا الموضوع للاستبعاد ، فهى في النية مقدمة داخلة على الجملة .

الثالث : أن يكون عطفا على محل إن مع ما عملت فيه ، وهو من عطف الجملة في الظاهر .

---

(١) هى قراءة ابن وثاب ، الدر المصون للسمين ج٩ ص٢٩٨

الرابع : أن يكون عطفا على محل إسم إن ،لأنه كان قبل دخولها في موضع رفع وهوهنا من عطف المفردات واعترض على تلك التخريجات باعتراضات[١]، وقد أجيب عنها.

والقول الأول هو المتوجه ، وهو كونه مبتدأ لخبر محذوف وأرباب الأقوال الثلاثة متفقون على هذا القول، وهذا الاتفاق يؤيد أولويته.

إذ المراد من قول الكفرة هنا ،زيادة استبعاد بعث آبائهم بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد ، على عقولهم القاصدة.

وعلى القراءة الثانية ، وهى التى بسكون الواو (أو) يجرى تلك الوجوه المتقدمة إلا أن العطف على الضمير على هذه القراءة ضعيف ، لعدم الفصل بشئ أصلا [٢].

والعامل في (إذا) محذوف أى : أنبعث إذا متنا، هذا إذا كانت ظرفا غير متضمنة لمعنى الشرط ، فإن كانت متضمنة معنى الشرط ، كان جوابها عاملا فيها .

والمعنى : أ إذا متنا بعثنا أو حشرنا .

وجملة (وأنتم داخرون) جملة حالية ، العامل فيها الجملة

---

(١) نفس المصدر بتصرف ج٩ ص٢٩٦

(٢) روح المعانى للألوسى بتصرف وزيادة ، م٨ ، ج٢٣ ص٧٨

القائمة مقامها (نعم) أى الفاعل الذي دلت عليه، والمعنى تبعثون كلكم ، والحال والشأن أنكم صاغرون أذلاء .

والفاء من قوله (فإنما هى) فصيحة ، أفصحت عن جواب شرط مقدر، والتقدير: إذا كان ذلك كذلك ، فما هى إلا زجرة واحدة ، أى : بعثة واحدة .

وجوز أن تكون تعليلية لنهى مقدر .

والتقدير : لا تستصعبوها ، فإنما هى زجرة .

ونازع أبو حيان في تقدير الشرط بأنه لا ضرورة تدعو إليه والجمهور على خلافه ، والحق معهم[1].

وجملة (هَذَا يَوْمُ الدِّينِ) استئناف من القائلين ذلك ، لتعليل دعائهم على أنفسهم بالويل ، والجملة مبتدأ وخبر .

أو هو من كلام البارى سبحانه ، أو كلام الملائكة لهم ، كأنهم أجابوهم بأنه لا تنفع الولولة والتلهف .

ويكون الكلام قد تم على قوله (ياويلنا)، وعلى هذا القول ففيه معنى التوبيخ والتقريع للكفرة ومثل هذا الذي قيل في هذه الجملة ، يقال في قوله بعد (هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ).

---

(١) روح المعانى للألوسى ، م٨ ، ج٢٣ ، ص٧٩

وإن كان كلا من كلامهم ، فهو من مخاطبة بعضهم لبعض وقوله (تُكَذِّبُونَ) على الالتفات من التكلم إلى الخطاب .

وإيثار تقديم التراب على العظام من قوله تعالى (أإذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً) والعادة أن يكون عظاما ثم ترابا ولكنه قدم التراب ، إما للتنويع، أى كان بعض الأجزاء ترابا ، وبعضها عظاما ، أو أنه قدم ، لأنه منقلب عن الأجزاء البادية أو لبيان المبالغة الشديدة في استبعاد البعث بعد أن يصيروا ترابا ، فقدموا ما هو أشد استبعادا وهو التراب ، لأنه أدل على مرادهم في الاستبعاد ، ولأنه أبعد عن الحياة ، عما هو مستبعد عندهم وهو العظام .

ومجئ النظم بما هو عليه يؤيد هذا ، فتقديم الظرف لتقوية الإنكار والاستبعاد للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة ، وكذا تكرير الهمزة للمبالغة والتشديد في ذلك ، وكذا تحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار،لا إنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم ، فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصادرة كما فى مثل قوله تعالى (أَفَلا تَعْقِلُونَ) [1].

وإيثار الكفار للجملة الأسمية (أإذا متنا) دون الفعلية ، إذ التقدير: (أنبعث إذامتنا) للإشعار بأن البعث مستنكر في نفسه ، وفى

---

(١) سورة البقرة ، آية :٤٤ ، وروح المعانى للألوسى م٨ ، ج٢٣ ، ص٧٧

هذه الحالة أشد استنكارا ، وهـذا الاستنكار منـهم مستمر وثـابت في اعتقادهم الفاسد ، لشدة بلادتهم وتهافت عقولهم وإيثار قوله (زجـرة) عن البعثة المفهوم من الضمير مـن قولـه تعـالى (فإنمـا هـى للإشـعار بمصاحبة هذه البعثة بصوت شـديد الجـرس ، وهـى الصيحـة ، إذ ذكـر البعثـة مجـردة ، لا يلـزم منـه هـذا الصـوت ، لأنـه مجـرد إثـارة الأشـياء وتوجيهها والإتيان بـالزجرة لتصويـر حـال الموتـى وانزعاجـهم بـهذا الصوت ، مع بعثهم وتوجيههم لحصول الرهبة والمهابـة ، وفيـها معنـى الانتهار .

وأن أمر (زجرة) في إعـادة الخلـق ، كـأمر (كـن) في الابتـداء ولذا رتب عليها (فإذا هم ينظرون) وفيها ما يفهم من الوحـدة لأجـل إنكارهم تصريحا بذلك وتحقيرا لأمر البعث في جنب قدرته سبحانه .

وإيثار لفظ (الدين) و(الفصل) من قوله (هذا يوم الدين) و(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ) عن يـوم القيامـة ، لأن مدلـول الديـن فيـه معنـى المجازاة والحساب على الأعمال وفى الفصل دلالة على القضاء والفـرق والتمييز بين الأشـياء المـترتب عليـه حشـر الأزواج (احْشُـرُوا الَّذِيـنَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ) .

وإيثار النظر بالذكر في قوله (فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ) لأنه لا يكون إلا مع كمال الحياة وأما السمع فقد يكون لغير الحى، ولذا رتب عليه قولـه

(وقالوا يا ويلنا) إذ لا يقال ذلك إلا بعد كمال الحياة والإدراك.

وتقديم الجار في قوله (به تكذبون) إشارة إلى عظيم تكذيبهم بهذا اليوم .

المعنى :

يقول منكروا البعث بعد بلائهم ، على سبيل الاستحالة والاستبعاد، أئنا لمبعوثون أحياء من قبورنا بعد مماتنا ومصيرنا ترابا وعظاما ، قد ذهب عنها اللحوم، وكذلك أباؤنا الأولون الذين مضوا من قبلنا ، فبادوا وهلكوا وأجيبوا بأنهم مبعوثون بعد مصيرهم ترابا وعظاما ، أحياء كما كانوا قبل مماتهم ، وهم حقراء صاغرون ينظرون إلى ما كانوا يوعدونه من قيام الساعة ويعاينونه داعين على أنفسهم بالويل لتحقق ما كانوا ينكرونه في الدنيا من الجزاء والمحاسبة ، إذ هو اليوم الذي يقضى فيه الله بين خلقه بالقسط (ولا يظلم ربك أحدا).

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- إختلال عقول وإدراك المنكرين للبعث ، إذ الذي يقر بالابتداء، يلزمه الإقرار

٢- إن علة إنكار البعث ، عند المنكرين له ، هى لعدم الالتزام بالشرع ،إذ الشرع تقييد ، وهم يريدون الإطلاق إتباعا لأهوائهم .

٣- عدم الجواب على استفهامهم الاستبعادى ، بظهور ذلك قبل في

الآيات الدالـة على كمال قدرة الله تعـالى في إعـادة الخلـق مـرة أخرى ، وما هو قائم من الآيات المحسوسة .

٤- إزاحة الغشاوة عن عقولهم وإدراكـهم يـوم القيامـة وذكرهـم بعـد رؤية أهوالهـا ليوم الجزاء الذي كذبوا به من قبل .

قول الله تعالى ذكره :

احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون* من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون * ما لكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون*

هداية الخلق إلى جزائهم في الآخرة

لما كان حالهم في الدنيا هو استبعاد البعث ، وإنكار الرجوع مرة أخرى إذا بهم وقت خروجهم من القبور وهم في شدة الكرب، يسمعون نداء الحق لمن لايعصون الله ما أمرهم ، بأن يجمعوهم ، إلى رؤية ما هو أشد كربا ، وهو الجحيم المعد لمنكرى البعث ، مع شدة إذلالهم وقت ذهابهم .

(احشروا) الحشر هو الجمع والضم ، وأصله إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها ، ويقال ذلك في الإنسان وفى غيره ، قال تعالى (وابعث في المدائن حاشرين) [١] وقال (والطير محشورة) [٢] وقال تعالى(وإذا الوحوش حشرت) [٣]وقال في صفة القيامة (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) [٤] والمعنى : اجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا وعصوه .

---

(١) سورة الشعراء ، آية ٣٦
(٢) سورة ص ، آية ١٩
(٣) سورة التكوير ، آية ٥
(٤) سورة الأحقاف ، آية ٦ وانظر المفردات للراغب ص١١٩

وهذا الأمر (احشروا) يبدأ به مضموم الهمزة لضم ثالثه ، وهو أمر من الله للملائكة ، أو أمر بعض الملائكة لبعض بحشر الظلمة من أماكنهم المختلفة إلى موقف الحساب ، أو من الموقف إلى الجحيم .

والأول ألصق بالسياق ، فهم يجمعون من الأماكن المختلفة للوقوف بين يدى الله تعالى للحساب .

(وأزواجهم) الأزواج جمع زوج ، والزوج : يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج ، ولكل قرينين فيها وفى غيرها زوج، ولكل ما يقترن بأخر مماثلا له أو مضاد زوج ، أما زوجة فلغة رديئة وجمعها زوجات ، وقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : أزواجهم : أمثالهم الذين هم مثلهم ، يحشر أصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ،وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر[1] .

والمعنى هنا: اجمعوا الذين ظلموا وأقرانهم المقتدين بهم في أفعالهم .

والقرين في الفعل شامل لكل فعل ، ولذا فسر بعضهم (أزواجهم) بأمثالهم ونظرائهم وأشباههم وأشياعهم ، وقيل :

---

(١) خرجه الحاكم ، كتاب التفسير / ٢ / ٤٣٠ ، وقال : صحيح على شرط مسلم

أزواجهم نساءهم الكافرات ، وقيل[١]: قرناءهم من الشياطين ، والأول أعم وأشمل .

(فاهدوهم) الهداية دلالة بلطف ، والمراد بها هنا تعريفهم طريق النار، ورؤيتهم إياها ، وفيه تهكم بهم كما في قوله (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) [٢] وهذه الهداية هى هداية الغايات والنهايات ، والتى هى بمثابة العاقبة لأفعال العباد، وهى هداية إلى الخير الأبدى أو الشر الأبدى.

ولذا فهداية الله للخلق على أربعة أوجه :

الأول : هداية الله لجميع الخلق ، وهى تعم العقلاء وغيرهم فهى تشمل الفطنة المعارف الضرورية ، وما فطر الله به خلقه وجلبهم عليه لنيل معاشهم واستمرارية جنسهم .

وهذه الهداية أعم الهدايات وأشملها، والدليل عليها قوله تعالى (والذي قدر فهدى) [٣]وقوله (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [٤].

الثانى: هداية العقلاء على ألسنة الرسل ، وإنزال الكتب فهذه هداية الدلالة والإرشاد والبيان ، وهذه الهداية أخص مما قبلها ، وأعم

---

(١) جامع البيان ، لأبى جعفر الطبرى م١٢ ، ص٤٦، ٤٧
(٢) سورة طه ، آية ٥٠
(٣) سورة السجدة ، آية ٢٤
(٤) سورة الشورى ، آية ٥٢

مما بعدها ، والدليل عليها قوله تعالى (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا) [١] وقوله تعالى (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [٢] .

الثالث : هداية التوفيق للعمل الذي اهتدى إليه من هدى ، وهذه الهداية أخص مما قبلها ، فلا يملكها إلا الله تعالى ، وهى التى نفاها عن نبيه ﷺ بقوله (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [٣] وقوله تعالى(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) [٤] يريد : أنه هداهم دلالة ، وبين لهم الحق عن طريق الرسل إلا أنهم عدلوا عن الحق إلى الضلال ، فلم يوفقوا لهداية العمل ، لأنهم مالوا إلى العمى بعد بيان الحق لهم .

الرابع : هداية الآخرة إلى الجنة ، أو إلى الجحيم ، وهى هداية النهايات ، فالأول كما فى قوله تعالى (وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد) [٥] وقوله تعالى (الحمد لله الذي هدانا لهذا) [٦]

---

(١) سورة النساء ، آية ١٣٨
(٢) سورة الأعلى ، آية ٣
(٣) سورة القصص ، آية ٥٦
(٤) سورة فصلت ، آية ١٧
(٥) سورة الحج ، آية ٢٤
(٦) سورة الأعراف ، آية ٤٣

والثانى كما في الأية هنا ، وهـى قولـه تعـالى (فـاهدوهم إلـى صراط الجحيم) [١] .

وحصول هذه الهدايات مترتب بعضه ببعض ، فمن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة ومن حصـل لـه الثالثـة حصـل لـه الرابعة ، ومن حصل له الرابعة فقد حصل له الثلاث التى قبلها[٢].

(صراط الجحيم) الصراط والسراط بالسين، الطريق أصله من سرطت الطعام وزردته ابتلعته ، فقيل سراط تصور أنه يبتلعه سـالكه ، أو يبتلع سالكه[٣].

وهو بحسب الوصف ، فيقال : الصراط المستقيم ، أى : الطريق القويـم المستسهل وهنا صراط الجحيم ،أى : دلوهـم وعرفوهـم ووجوهـهم إلى طريق جهنم ليسلكوها والجحيم من الجحمة ، وهو أسـم لشـدة تـأجج النار[٤].

(وقفوهم) الوقف الحبس واقفا ، يقال : وقفت الدابة حبسـتها ، ومنه وقفت الدار إذا سبلتها[٥].

والمعنى هنا : أحبسوهم واقفين بعد ترويعهم يتلك الهداية التى

---

(١) سورة الصافات آية ٢٣
(٢) المفردات للراغب ، ص٥٣٨
(٣) المفردات للراغب ص٢٣٠ ، ٢٨٠
(٤) روح المعانى للألوسى م٨ ، ج٢٣ ، ص٨٧
(٥) نفس المصدر ص٥٣٠

سببها الضلال فكانت ثمرتها الشقاوة .

(لا تناصرون) النصر والنصرة العون[1] ، والتناصر التعاون والمعنى : أى شئ حصل لكم فشغلكم وألهاكم حال كونكم ، لا تناصرون أى: لا ينصر بعضكم بعضا ، كما كنتم تناصرون على الباطل في النيا .

(مستسلمون) الاستسلام الانقياد الثابت الذي لا يزول عنهم.

والمعنى : قد ثبت لهم الانقياد الذي لا زوال له ، بخذلان بعضهم بعضا في هذا اليوم ، فهم منقادون لهذا الخذلان الذي لزمهم لا مفر لهم منه ، لعجزهم وانسداد باب الحيل عليهم ، فكل واحد منهم مستسلم غير منتصر بل مخذول ذليل .

وقد قرأ عامة القراء (أزواجهم) بالنصب ، وذلك إما بالعطف على الموصول (الذين) ، والتقدير : احشروا الذين ظلموا ، واحشروا أزواجهم .

وإما على أنه مفعول معه ، والتقدير : احشروا أزواجهم وأصنامهم معهم.

قال أبو البقاء : وهو في المعنى أقوى ، ووجه كونه أقوى في المعنى ، لأنه فى الصناعة ضعيف ، إذ إنه أمكن العطف فلا يعدل

---

(١) المفردات للراغب ص٤٩٥

عنه[١].

وقرئ (أزواجهم) بالرفع، وهو شاذ، ووجه، أنه معطوف على ضمير (ظلموا) وهو ضعيف لعدم العامل، والتقدير على هذه القراءة: وظلم أزواجهم وقرأ عامة القراء (إنهم مسئولون) بكسر همزة (إنهم) وذلك على الاستئناف المفيد للعلة[٢].

والمعنى: وقفوهم لأنهم مسئولون عن جميع أقوالهم وأفعالهم وقرئ بفتح الهمزة وذلك على حذف لام العلة[٣].

والتقدير: وقفوهم لأجل سؤال الله إياهم، وقد اختلف المفسرون في المراد بالمسئول عنه، فقيل: يسئلون عن عقائدهم وأعمالهم، وقيل عن لا إله إلا الله وقيل: عن شرب الماء البارد على طريق الهزء بهم وقيل :عن أعمالهم وأقوالهم في الدنيا وقيل: عن خطاياهم، وقيل يسئلون عما كانوا يعبدون، وقيل: يسألهم خزنة جهنم (ألم يأتكم نذير)[٤] وروى عن الإمامية، بأنهم يسئلون عن ولاية على كرم الله وجهه[٥].

وأولى هذه الأقوال الأول، لأنه الأعم الأشمل، ورأس ذلك كله

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبي ج٩، ص٢٩٩، بتصرف وزيادة
(٢) نفس المصدر ج٩، ص٣٠٠
(٣) نفس المصدر ج٩، ص٣٠٠
(٤) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ج٧ ص٥٣، الآية سورة تبارك ٨
(٥) روح المعاني للألوسي م٨، ج٢٣، ص٨٠

(لا إله إلا الله) وقرئ (لا تناصرون) بتشديد التاء ، وقرئ بتاءين[1] (لا تناصرون) .

وجملة (ما لكم) مبتدأ وخبر، و(ما) استفهام توبيخى والجملة مقول لقول محذوف والتقدير : يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : أى شئ منعكم من أن ينصر بعضكم بعضا، ويمكن أن تكون هذه الجملة منقطعة عما قبلها ، والمسئول عنه غير مذكور ، ولذا قدر عن أعمالهم ويجوز أن يكون هو المسئول عنه في المعنى فيكون معلقا للسؤال .

وجملة (لا تناصرون) جملة حالية ، والعامل فيها الاستقرار في (لكم) والتقدير : أى شئ منعكم من أن ينصر بعضكم بعضا إذا الحال والشأن في هذا اليوم أن بعضكم لا ينصر بعضا كما كنتم في الدنيا .

والخطاب في (لا تناصرون) إما للظلمة وألهتهم على سبيل التهكم ، أولهم فقط و(بل) للإضراب ، وهو إما أن يكون عن مضمون ما قبله ، والتقدير: أنهم لا ينازعون في الوقوف وغيره ،بل ينقادون أو يخذلون أو أن الإضراب عن قوله (لا تناصرون) والتقدير: انه لا يقدر بعضهم على نصر بعض ،بل هم منقادون للعذاب أو مخذلون[2] .

---

(1) والقراءتان عشريتان ، انظر النشر للإمام الجزرى م٢ ، ص٣٥٧ ، ٢٣٢

(2) روح المعانى م٨ ، ج٢٣ ، ص٨٠

ويمكن أن يكون الإضراب عن هذا كله وهو المتوجه ، فهم لا يمكنهم المنازعة فيما ذكر قبل، ولا يقدر بعضهم على نصر بعض في هذا اليوم، فكلهم منقادون للعذاب الذي استحقوه،مع غاية الذلة والخذلان والخضوع، لصدورفعل ما يقتضى ذلك منهم ، وهو الشرك ، إذ الشرك ظلم عظيم.

وإيثار لفظ الحشر دون الجمع أو ما هو دونه ، لشموله لكل معانى الجمع والضم ولأن الحشرلا يقال إلا في الجماعة ويقال ذلك في الإنسان وغيره ، قال تعالى (وابعث في المدائن حاشرين) [١] وقال سبحانه (والطير محشورة) [٢] وقال تعالى (وإذا الوحوش حشرت)[٣] ويقال: حشرت السنة مال بنى فلان أى[٤] : ازالته عنهم وإيثار لفظ (ظلموا) دون اشركوا، لدلالة قوله (وما كانوا يعبدون) عليه ، لعموم لفظ (ظلموا) عنه ، إذ الظلم وضع الشئ في غير موضعه، إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أومكانه وهؤلاء عدلوا عما يجب أن يكون لواحد ، فجعلوه لاثنين أو أكثر .

وإيثار الفاء في قوله (فاهدوهم) دون الواو ، إشارة إلى سرعة وقوع حسابهم فالفاء هنا للتعقيب أى : أن التعريف بطريق النار بعد

---

(١) سورة الشعراء آية : تقدمت
(٢) سورة ص ، آية ١٩
(٣) سورة التكوير ، آية : تقدمت
(٤) المفردات للراغب ، ص١١٩

حشرهم وجمعهم وضمهم وآلهتهم التى كانوا يعبدونها من دون الله كان بعد سرعة حسابهم ، كما قال تعالى في آية أخرى (والله سريع الحساب) فالفاء لإفادة بيان سرعة الانتهاء من حسابهم بعد جمعهم ، وأن ذلك يسير على الله تعالى .

وإيثار لفظ الصراط والهداية هنا للتهكم بهم ، إذ غالبا ما يستعمل لفظ الصراط والهداية للخير وهذا نظير قوله تعالى (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) [1] وظاهر هذه الآيات يشير إلى أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى صراط الجحيم.

والترتيب يقتضى أن يكون السؤال أولا ، ثم الذهاب إلى الجحيم.

والجواب عن هذا بوجوه :

الأول : أن الهداية هنا بمعنى دلالتهم وتعريفهم عليها ، لا بمعنى إدخالهم فيه وإيصالهم إليه، ومنطوق الآية يدل عليه، إذ إنه قال:(فاهدوهم) ولم يقل فأدخلوهم

الثانى : أن الأمر بالوقف للسؤال قبل الأمر بتعريفهم للجحيم ، إذ الواو لا تقتضى الترتيب، فترتيب الذكر لا يلزم أن يكون وفق ترتيب الوجود مع حرف الواو .

---

(1) سورة النساء ، آيه تقدمت.

الثالث : ويمكن أن يكون الترتيب في حقهم أن يعرفوا أولا أنهم أهل النار، وهذا طريقها ويؤمر بسلوكها ثم إذا انتهوا إلى موقف الحساب يؤمر بالوقف للسؤال ثم يساقون إلى النار، وفى حق غيرهم لا يبدأ معهم بتعريف طريق الجحيم وإنما يساقون إلى الموقف .

وحكمة بدء التعريف في حق الظلمة المذكورين للتعجيل بمساءتهم وحسرتهم .

الرابع : ويجوز أن يكون المراد بالسؤال هنا ، ما يذكر بعده ، وهو قوله (ما لكم لا تناصرون) أى : لا ينصر بعضكم بعضا .

الخامس : جواز أن يكون صراط الجحيم طريقهم له من قبورهم إلى مقرهم هو ممتد ، فيجوز كون الوقف في بعض منه مؤخرا عن بعض[1].

والأوفق بالنظم القرآنى ، والأليق بالسياق ، هو القول الأول مع الثالث ، والقول الثالث يؤيد ذلك إذ النظم جاء بحرف الواو الذي يساعد على هذا المعنى .

ولعل مجئ النظم القرآنى بهذا الترتيب لتوصيف حال الظالمين الذين جعلوا مع الله إلها أخر، لبيان أنه الذنب الأعظم الذي يستحق

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ج٧ ، ص١٢٤ بتصرف

فاعله أشد وأسوأ العذاب معنى وحسا .

وظاهر هذه الآيات يشير كذلك إلى ما يوهم التعارض مع آيات أخر ، إذ ظاهرها يدل على أن الكفرة والظلمة الذين جعلوا مع الله إلها أخر سوف يسئلون يوم القيامة بعد حشرهم .

وهذا يتعارض مع قوله تعالى في آية أخرى (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان) فهذه الآية ظاهرها تنفى أن يسئلوا .

والجواب عن هذا من وجوه :

الأول: قيل : تحمل الآية الأولى ، والتى فيها السؤال ، عن التوحيد وتصديق الرسل .

وتحمل الثانية على ما يستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه .

الثانى: أن هذا محمول على اختلاف الأماكن ، لأن في القيامة مواقف كثيرة ففى موضع يسألون وفى أخر لا يسألون .

الثالث : أن السؤال المثبت سؤال تبكيت وتوبيخ والمنفى سؤال المعذرة، وبيان الحجة [1].

ولا مانع من حمل كل هذه الوجوه للأيتين، وما شابههما من

---

(1) الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطى ، تحقيق بازمول ، ص٣٦٢

الآيات ، وأن ا لتعارض الموهوم من الظاهرمنفى، إذ عند التأمل والتدبر أمكن الجمع بين النفى والإثبات وذلك لانفكاك الجهة بين كل منهما معنى.

وظاهر هذه الآيات يدل على عموم أن الحشر يوم القيامة شامل لكل عابد ومعبود ويدخل فيما كان يعبد من دون الله ، المسيح بن مريم ، وعزير عليهما السلام وغيرهما والجواب عن هذا أن يقال :

إن هذا النص وما ماثله عام مخصوص بقوله تعالى (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) [1] كما خص به قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون)[2] .

فالذين سبقت لهم الحسنى ،وهى الجنة ، كالمسيح وعزير وغيرهما خصوا من هذا العموم ، فلا يدخلون في شموله .

وقيل : أن(ما) من قوله (وما كانوا يعبدون) كناية عن الأصنام والأوثان، فهى لما لا يعقل ، على قول كثير من النحاة ، إذ الكلام هنا في المشركين عبدة ذلك .

والقول بأن (ما) لما لا يعقل مطلقا ، ومن للعاقل فيه نظر

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠١
(٢) سورة الأنبياء ، آية ٩٨

وتقدم الكلام عليه(١) .

وقيل : إن (ما) على عمومها ، والأصنام ونحوها غير داخلة لأن المشركين إنما عبدوا الشياطين التى حملتهم على عبادتها .

والقول بالتخصيص أقرب وأصوب ، إذ فيه الجمع بين جميع معانى الآيات .

المعنى:

اجمعوا الذين كفروا بالله في الدنيا وعصوه ،وانكروا البعث بعد الموت ، وكذلك أزواجهم وأشياعهم ونظراءهم على ما كانوا عليه من الكفر بالله ، وما كانوا يعبدونمن دونه من الألهة ، ووجوهم إلى صراط الجحيم الذي أعد لهم، واحبسوا أيها الملائكة هؤلاء المشركين الذين ظلموا أنفسهم وأزواجهم للسؤال عن أعمالهم التى عملوها في الدنيا، ليجازوا بها، وقد جمع عليهم الهموم بهذا، لتذهب أوهامهم كل مذهب ، فلا تبقى حسرة إلا حصرتهم ، ولا مصيبة إلا علت قلوبهم فقهرتهم.

---

(١) انظر ص

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- إثبات الحشر للخلق بعد خروجهم من القبور، للمجازاة على الأعمال.

٢- يجمع يوم القيامة بين العابد والمعبود الذي رضى بأن يعبد من دون الله ، في جهنم ، أما الذي عبد ولم يكن راضيا أو لم يعلم بأنه عبد ، فأولئك لا لوم عليهم فمنهم من سبقت لهم الحسنى .

٣- التوبيخ والتقريع والعذاب لأولئك المنكرين للبعث يوم القيام عند حشرهم إلى جهنم زيادة في النكال والبلاء .

٤- تعدد المواقف يوم القيامة ، للتبكيت والتنكيل بمنكرى البعث والنشور.

قول الله تعالى ذكره :

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين * فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين * فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقو العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين

مخاصمة أهل الباطل يوم القيامة

ولما أخبر بأنهم سئلوا فلم يجيبوا ، كان ربما ظن أنهم أخر سوا فنبه على أنهم يتكلمون بما يزيد نكدهم وغمهم وذلك بعد أن أشار إلى إقبالهم على الخصام والاتهام ، حين تمام القيام ، والأخذ في تحريك الأقدام ، بالسير على هيئة الاجتماع والازدحام، إلى مواطن النكد والاغتمام، ولم يعطفه بالفاء لأنه ليس مسببا عن القيام ولا عن

الإيقاف للسؤال ، بخلاف أهل الجنة الذي سيأتى بعد ، فقال :(وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) و (وأقبل) الإقبل التوجه نحو القبل كالاستقبال والقابل هو الذي يستقبل الدلو من البئر فيأخذه(١).

والمعنى : وتوجه بعض الظلمة مستقبلين بعضهم ببعض للتسائل والتخاصم، على سبيل التوبيخ والجدال واللوم وقيل : المراد : وأقبل الإنس على الجن يتساءلون .

و(اليمين) اليمين أصله الجارحة ، ولشرف اليمين جاهلية وإسلاما ،دنيا وأخرى ولا طباق العرب أن ما أتى عن اليمين كان مباركا ، إذ كانوا يتيمنون بها، فبها يصافحون ويماسحون ويناولون ويتناولون ويزاولون أكثر الأمور،ويتشاءمون بالشمال ولذا سموها الشؤمى ، ومن ثمت ، كان لهذا اللفظ في الكلام وجوه :

الأول : أن اليمين موصوفة بالقوة ، ويقع بها البطش، وهذا معناه: إطلاق اليمين التى هى الجارحة و إرادة ما يصدر منها وهو البطش والقهر، وقد اعتبروا هذا جازا مرسلا ، بإطلاق المحل على الحال أو السبب على المسبب .

الثانى : أن اليمين تطلق ويراد بها جهة الخير، وجعلوا ذلك مجازا على المجاز إذ إطلاق اليمين على الجهة مجاز في نفسه ، وإرادة الخير

---

(١) المفردات للراغب : ص٣٩١

يعتبر مجـازا ثانيـا غـير أنـهم جعلـوا ذلـك إسـتعارة تمثيليـة ، والتجوز في مجموع ما تقدم من قوله (تـأ تونـنـا عـن اليمـين) بمعنى تمنعوننا وتصدوننا عن الخـير، وبـدا يسـلم الكـلام مـن دعوى المجاز على المجاز ، وكان المراد بالخير الإيمان بما يجب الإيمـان به .

الثالث :وجوز بعضـهم أن يكـون المـراد بـاليمين الخـير الـذي يزعمـه المضلون خيرا ، والمعنى: إنكم كنتـم تأتوننـا مـن جهـة الخـير ، وتزعمـون أن مـا أنتـم عليـه خـير ودين حـق ، فتخدعوننـا وتضلوننا[1].

الرابع : وجوز بعضهم أن يكون معناه : كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة ، فترغبوننا بما أنتم عليه فتضلوننا وهذا المعنى قريب فمما قبله .

الخامس : ويجوز أن يكون اليمين حقيقة بمعنـى القسـم ومعنـاه : أنـهم يأتونهم مقسمين لهم على حقيقة مـا هـم عليـه مـن البـاطل ، وعليه فالجار والمجرور فى موضع الحال .

ولا مانع من إرادة هذه المعانى ، وتلك الوجوه من الآية إذ الذي يدعو غيره لأمـر يعتنقه ، يزعم أن ما يدعو إليه هـو الخـير مزينـا إيـاه ،

---

(١) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ج٧ ص١٢٥ . بتصرف

حتى يظن من يدعوه إنه حق مؤيدا إياه بالنصح مع الترغيب في أعتناقه بخير مزعوم من مناصب الدنيا، أو خطوط باطلة في الأخرة ، مع القسم إذا أقتضى الحال والتسلط والقهر والبطش إن أضطر إليه .

ولذا كان التعبير بهذا اللفظ،وذينك التركيب الذي يحتمل هذه المعانى كلها متداخلة أو مرتبة ، إذ الغاية إقصاء الخلق عن الحق ، ودعوتهم إلى الباطل والضلال بطريق المغالطة والكذب ، والمقصود على التفسير السابق ، أن الكفار تقول ذلك للشياطين الذين أتوهم عن اليمين وأضلوهم ، أو للرؤساء أو الكفرة مطلقا .

و(سلطان) السلطان من السلاطة ، وهى التمكن من القهر ، قال تعالى (ولو شاء الله لسلطهم عليكم)[1] ، ويطلق السلطان ويراد به الحجة ، وذلك ، وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب ، قال الله تعالى (الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان)[2] أى : حجة(٣).

والمعنى على الأول ، وهو القهر والتسلط .

أنتفى أن يكون لدينا ما يقهركم ويجبركم على أتباع ما دعوناكم إليه من ضلال وباطل .

والمعنى على الثانى: أنتفى إتياننا لكم بحجة على ما دعوناكم

---

(١) سورة النساء ، آية ٩٠

(٢) سورة غافر ، آية ٣٥

(٣) المفردات للراغب ص: ٢٣٨

إليه كما أتت الرسل و(طاغيين) الطغيان مصدر (طغى) وهو تجاوز الحد في العصيان[١].

والمعنى : أنتم موصوفون بالطغيان ، إذ كنتم متجاوزين الحد في العصيان مختارين له ، مصرين عليه وقد وافقت دعوتهم هواهم .

و(فحق) أصل الحق المطابقة والموافقة[٢]، وهنا موافقة للقول الواقع الثابت وذلك بحسب وبقدر ما يجب وفى الوقت الذي يجب ، قال تعالى (وكذلك حقت كلمت ربك) [٣] وقال (حق القول مني لأملأن جهنم)[٤] أى : ثبت ووجب .

والمعنى: لزمنا جميعا ، وثبت في حقنا قول ربنا وخالقنا ،العالم بما نحن عليه ثبت علينا وعيده ، بأنا ذائقون ، لا محالة لعذابه عز وجل و(فأغويناكم) الغى الجهل من اعتقاد فاسد(٥)، وقد يكون الجهل من غير اعتقاد لا صالح ولا فاسد ، والأول هو المراد هنا .

وهو الذي نفاه الله عن نبيه ﷺ في قوله (ما ضل صاحبكم وما غوى) (٦).

والمعنى هنا : دعوناكم إلى الغى ، الذي هو الجهل مصاحبا

---

(١) المفردات للراغب ، ص ٣٠٤
(٢) نفس المصدر ، ص١٢٥
(٣) سورة غافر ، آية ٦
(٤) سورة السجدة ، آية ١٣
(٥) المفردات للراغب ، ص ٩١
(٦) سورة النجم ، آية ٢

للاعتقاد الفاسد ، إذ أننا نحب أن تتصفوا به مثلنا .

و (بالمجرمين) أجرم صار ذا جرم ، نحو أثمر وألبن صار ذا ثمر وتمر وألبن(١)، والجرم يطلق على كل اكتساب مكروه ، قال تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) (٢)

والمعنى: مثل هذا الفعل العظيم الشأن يوقعه الله تعالى على كل قاطع لما أمر الله به أن يوصل في الدنيا والأخرة .

و(يستكبرون) الاستكبارأن يتشبع الإنسان فيظهر من نفسه ما ليس له وقد يطلق ويراد به ، ما يصير الإنسان به كبيرا، وذلك متى كان على ما يجب، وفى المكان الذي يجب ، وفى الوقت(٣) الذي يجب ، والأول مذموم ، وهو الذي ورد به القرآن كما في قوله (أبى و استكبر) وقوله (واصروا واستكبروا استكبار) (٤) والمعنى هنا : أنهم يطلبون الكبر من أنفسهم ، ومن غيرهم ، لما فيهم من العراقة والعتو عن الإقرار بهذا الحق الذي لا أعدل منه ، وعن متابعة الداعى إليه .

و (لذائقوا) الذوق وجود الطعم بالفم ، وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر منه يقال له الأكل ، واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب ، لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل ، فهو مستصلح للكثير ،

---

(١) المفردات للراغب ، ص: ٩١
(٢) سورة المطففين ، آية ٢٩
(٣) المفردات للراغب ، ص٤٢١
(٤) سورة البقرة ، آية ٣٤

فخصه بالذكر ليعم الأمرين ، وكثر استعماله في العذاب[1] كما هو هنا (لذا ئقوا العذاب الأليم) (٢) وقوله (ليذوقوا العذاب) والمعنى : أنه سيلحق بهم ما وقع به الوعيد ، من سؤ العذاب .

و(المخلصين) الخالص كالصافى ، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه ، والصافى قد يقال لما شوب فيه .

والإخلاص: هو التبرى عن كل ما دون الله تعالى(٣)، وهو فعل الإخلاص بكسر اللام ، ومعناه : إخلاص العبادة لله ، والانقياد له بالطاعة ، وبالفتح معناه : أن الله أخلصهم واصطفاهم بفضله .

وقرئ سبعية (أئنا) بتحقيق الهمزتين ، وتسهيل الثانية وإدخال ألف بينهما على الوجهين فالقراءات أربعة(٤).

وقرأ العامة (وصدق المرسلين) بتشديد الدال ، ونصب (المرسلين) ومعناه(٥) :

صدق من كان قبله من المرسلين، بما جاء به من التوحيد الخالص الذي هو الحق الثابت ، الذي قام عليه البرهان وقرئ بتخفيف الدال ،ورفع (المرسلون) (٦) بالواو ومعناه : وصدق المرسلون في

---

(١) المفردات للراغب ص: ١٨٢
(٢) سورة النساء ، آية : ٥٦
(٣) المفردات للراغب ص١٥٤ ، ١٥٥
(٤) حاشية الجمل على الجلالين ج٣ ص٥٣٥
(٥) الدر المصون للسمين ج٩ ص٣٠١
(٦) نفس المصدر ج٩ ، ص٣٠٢

التبشير بمحمد ﷺ وفى أنه يأتى أخرهم .

وقرأ الجمهور (ليذوقوا العذاب) بجر (العذاب) وإضافة (لذائقوا) إليه، وقرئ بنصب (العذاب) مع حذف النون من (لذائقوا) ، وقد أجرى النون مجرى التنوين في حذفها لالتقاء الساكنين كقوله تعالى (أحد الله الصمد) وهو ضعيف فى غير المحلى باللام(١) ، وقرئ بإثبات النون وفتح العذاب وهو الأصل(٢).

وجملة (عن اليمين) حال من فاعل (تأتوننا) ، فإذا كان المقصود باليمين القوة والقهر ، فالتقدير تأتوننا أقوياء وإذا كان المقصود بها الحلف ، فالتقدير : تأتوننا مقسمين حالفين .

و(عن) في قوله (عن اليمين) معناه : الباء ، كما في قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) أى : بالهوى (٣)

والمقصود أن (عن) فيه معنى (الباء) وليس هذا بدل هذا إذ حروف الجرمن الألفاظ المتواطئة .

و(بل) من قوله (قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) للإضراب الإبطالى، وهو إضراب لما ادعاه التابعون والتقدير:لم تتصفوا بالإيمان في وقت من الأوقات حتى تحتجوا بنا على كفركم وضلالكم ويؤيد هذا

---

(١) الدر المصون للسمين ج٨ ، ص٣٠٢

(٢) نفس المصدر ج٩ ، ص٣٠٢

(٣) روح المعانى م٨ ، ج٢٣ ، ص٨١

(بل) بعد، من قوله (بل كنتم قوما طاغين) وهو إضراب إبطالى أخر، يبطل وجود حجة من قبل المتبوعين بإتباعهم،فليسوا ممن يقتنع بالحجج ، إذ إن التابعين قد تجاوزوا الحد في الطغيان أصلا وأبتداء قبل أن يدعوهم إلى الضلال والكفر والفاء في قوله (فأغويناكم) لتقريع الدعاء المذكور على حقية الوعيد عليهم .

والتقدير : فدعوناكم إلى الغى فاغويناكم ... ألخ وليست الفاء لمجرد التعقيب : باعتبار أن وجوده أى : الدعاء ، الخارجى متعلقا بهم كان متفرعا عن ذلك فى نفس الأمر لا باعتبار أن إصداره و إيقاعه منهم على المخاطبين كان بملاحظة ذلك كما يلاحظ العلل الغائية في الأفعال الاختيارية [1].

ونظير هذا المعنى في الفاء هنا ، يقال في الفاء من قوله (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) فهى تفريع لبيان حال المتسائلين من الفريقين .

وقوله (إلا عباد الله) أستثناء منقطع بمعنى لكن .

والتقدير:لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق وفواكه ... ألخ .

وهو أستثناء من ضمير (ذائقوا) وما بينهما اعتراض .

وقيل:من ضمير (تجزون) والتقدير : أن الكفرة لا يجزون إلا بقدر

---

(1) روح المعانى للألوسى م٨ ، ج٢٣ ، ص ٨٢

أعمالهم

وأما عباد الله المخلصون فإنهم يجزون أضعافا مضاعفة .

وحمل الجملة على واحد من التقدير مستلزم للأخر ، إذ جزاء كل من الفريقين مختلف نوعا وكما.

وجاءت الآية في قوله (قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) جوابا لسؤال ، كأنه قيل : كيف يتساءلون ، فقيل : قالوا أى : الأتباع للرؤساء أو الكفرة مطلقا للقرناء فالآية جاءت على سبيل الاستئناف البيانى.

ونظيرهذه الآية قوله تعالى بعد(قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) وهو جواب بطريق الإضراب الإبطالى عما قالوه لهم ، أى : قال الرؤساء أو القرناء.

وإيثار لفظ (اليمين) هنا في تلك المخاصمة ، لإفادة الشمول الذي يتضمنه هذا اللفظ من معان إذ لا مانع من حصولها جميعا ، ولو عبر بجهة الخير مثلا ، أو الدين أو القوة والتسلط ، ما كان سيؤدى إلى هذا المفهوم الشامل وليعلم أن تركيب جمل القرآن جاءت باللفظ الأعم .

وإيثار لفظ (اليمين) في قوله (تأتوننا عن اليمين) دون لفظ أخر يدل على جهة التسلط التى كانوا عليها، لإفادة عموم وشمول ما

تدل عليه هذه اللفظة، وأن جميع المعانى التى تواطأت عليها قد تكون مرادة هنا، ودخول(عن) عليها لتساعد على إفادة إثبات هذا العموم ، ومجئ جملة (عن اليمين) على الحال لتأكيد ذلك في القرناء ، ولبيان أن هذه الحال لا تنفك عنهم ، بل هى وصف لازم وثابت لهم .

وإيثار لفظ (سلطان) في قوله (وما كان لنا عليكم من سلطان) دون التقييد بأحد معنييه - التسلط والحجة - لإفادة إمكان إرادة نفى معنييه ، عن أن يكون حصل واحد منهما لهم .

والمقصود من هذا النفى ، النفى المصاحب للإلجاء والجبر فقد دعوهم إلى الغى من غير أن تكون هذه الدعوة ملجئة مجبرة لهم على الإستجابة ، بل استجابوا لدعوتهم باختيارهم واستحبابهم الغى على الرشد فلا عتب على القرناء في ذلك وهذا وجه النفى هنا ، لأن لا يكون التعارض بين قوله (فأغويناكم) وهذه الآية وإيثار الخطاب عن الغيبة في قوله (إنكم لذائقو العذاب الأليم) على سبيل الإلتفات ، لبيان إظهار كمال الغضب عليهم بمشافهتهم بهذا الوعيد، ولإفادة عدم الاكترات بهم ، وهذا هو اللائق بالمستكبرين الغاوين .

وإيثار التعبير بأداة الكون (كنتم تعملون) لبيان أن الخلال السيئة التى كانواعليها كانت بمثابة الخلق لهم ، وهم لا يقدرون على الإنفكاك عنها ، وكأنها طبع فيهم لا يمكن التخلى عنها بحال .

المعنى :

يقول الأتباع والرؤساء المضلون ، أو الكفرة من الإنس وقرناؤهم من الجن على طريقة السؤال المصاحب للتقريع والخصومة والجدال مشيرين بأداة الكون إلى المداومة على اضلالهم مؤكدين لأجل تكذيب الرؤساء لهم قائلين إنكم كنتم تأتوننا من جهة النصيحة ،فترغبوننا بما أنتم عليه من الضلال فتضلوننا ،ويرد عليهم الرؤساء بإنكار إضلالهم إياهم قائلين لهم : أنتم أضللتم أنفسكم بالكفر ولم تكونوا مؤمنين أصلا ، ولم يكن لدينا ما نقهركم به ، ونتسلط به عليكم في سلبكم إختياركم ، بل كنتم قوما متجاوزين الحد في العصيان مختارين له مصرين عليه ولأجل أنا جميعا في حد ذاتنا لم نكن مؤمنين ، وكنا قوما طاغيين لزمنا جميعا قول ربنا ، العالم بما نحن عليه ، وبما يقتضيه أستعدادنا ، وثبت علينا وعيده بأنا ذائقون لا محالة لعذابه،وهذا العذاب لا محيص عنه ،وأنه قد ترتب على كل منا بسبب أمر هو عليه في نفسه وقد اقتضاه إستعداده وفعله باختياره ، فلا يلومن بعضنا بعضا ، ولكن ليلم كل منا نفسه ولذا كان إغواؤنا لكم ، لأنكم كنتم قوماغاويين أصلا ، ولذا فالفريقان في العذاب مشتركون ، وهذا العذاب حاصل لكل مجرم ضل ، وما كان يمنعهم عن الإيمان و الاستقامة على الحق ، إلا الكبر والاستنكاف ، ووصفهم الحق بالشعر والجنون مع علمهم بانتفاء ذلك كله عنه فقد جاءهم الحق والصدق

البين الواضح الذي لا لبس فيه وقد أقيمت الحجة عليهم فلا مناص لهم من العذاب الذي يستحقونه باختيارهم أما الذين أخلصوا له العبادة وأمنوا بالبعث والحشر ، فلهم شأن أخر في الأخرة .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- حصول المخاصمة والمنازعة يوم القيامة، بين المشركين في الإثم والعصيان

٢- عدم نفع حجج الخصوم يوم القيامة ، فحججهم كلها داحضة .

٣- وجوب إشتراك التابع والمتبوع في الشرك والضلال يوم القيامة في العذاب .

٤- بيان أن هؤلاء المشركين بالبعث والنشور لم يمنعهم من الإيمان إلا الكبر والعناد .

٥- إقامة الحجة على الخلق ، قبل أخذهم بذنوبهم .

قول الله تعالى ذكره :

أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ

حال عباد الله الموحدين في الجنة ، والنعيم المقيم

لما كان حال أهل الجنة مختلفا عن حال أهل العذاب ، خلص أهل الجنة من الاستثناء السابق ليبين أن حالهم أمن وأمان، ونعيم مقيم، وقد أشار إلى هذا بأداة البعد ، لبيان عظيم حال ما هم فيه من راحة وصفاء ،إذ لا يعتريهم أكدارالأهوية بحال ، فقال (أولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُوم) .

(معلوم) وذلك باعتبار خصائصه المعلومة لهم من آيات أخر ، ككونه لا مقطوع ولا ممنوع طيب الطعم واللذة والرائحة ، وحسن المنظر ، بكرة وعشيا، إلى غير ذلك من الصفات المرغوبة .

وليس هذا لبيان مقداره ، إذ قد جاء في آية أخرى قوله (يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ) (١) وما لا يدخل تحت الحساب لا يحد ولا

---

(١) سورة غافر، آية :٤٠

يقدر فلا يكون معلوما .

فمعلومية الرزق هنا باعتبار صفته وخصائصه التى خص بها .

(فواكه) الفاكهة من فكه ، وهى الثمار كلها وقيل : بل هى الثمار ما عدا العنب والرمان ، لقوله بعد ذكرالعنب(١)، (وفاكهة وأبا) وقوله (فيها فاكهة ونخل ورمان) (٢) فقد خصهما بالذكر(٣)، وعطفهما على الفاكهة .

وأيا ما كان ، فالمراد بالفواكه ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الإقتيات لكونهم مستغنين عن القوت لأحكام خلقهم ، وعدم تحلل شئ من أبدانهم بالحرارة الغريزية ليحتاجوا إلى بدل يحل من القوت(٤) ولأن قوله (مكرمون) فيه ما يدل على أنه بمثابة النزل وهو غير ما لهم داخل الجنة ،وهو نظيرما قاله في حق المشركين يوم القيامة (هَـذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) .

(مكرمون) الإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان أكرام أى : نفع لا يلحقه فيه غضاضة ، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كريما(٥) ، أى : شريفا ، و(مكرمون) أى جعلهم كراما والمقصود هنا : هو نيل

---

(١) سورة عبس ، آية : ٣١
(٢) سورة الرحمن ، آية : ٦٨
(٣) المفردات للراغب ، ص٣٨٤
(٤) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٨٦
(٥) المفردات للراغب ، ص٤٢٩

الرزق حيث يصل إليهم من غير كسب وكد وسؤال ، كما هو شأن أرزاق الدنيا .

ويمكن أن يكون فيه إشارة إلى النعيم الروحانى ، بعد النعيم الجسمانى ، الذي هو بواسطة الأكل ولا ريب أن كل منهماحاصل له نعمة من الله وفضلا .

(سرر) جمع سرير ، والسرير هو الذي يجلس عليه وهو من السرور، إذ كان ذلك لأولى(١) النعمة فالمادة تدل على الحالة التى هم فيها ، وهى كمال البهجة والسرور .

(متقابلين) التقابل والمقابلة أن يقبل بعضهم على بعض إما بالذات، وإما بالعناية والتوفر(٢) والمودة وكل من المعنيين واقع منهم ، بعضهم لبعض ، لأنهم في حال أستئناس ، فيحسن والحالة هذه أن يقابل كل منهم الأخر للمحادثة ، فلا ينظرولا يتحادث بعضهم في قفا بعض ، إذ هذا يتنافى مع حالة التواصل والتحابى التى هم فيها ، وفيه من كمال الأدب ما فيه .

(يطاف) الطوف المشى حول الشيء ، ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظا ، يقال : طاف يطوف(٣).

---

(١) المفردات للراغب ص٢٢٩

(٢) نفس المصدر ، ص٣٩٢

(٣) المفردات للراغب ، ص٣١١

والمقصود به هنا الغلمان الذين صرح بهم في موضع أخر فقال (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ) (١) وقال : (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ)(٢) وهم خدم أهل الجنة.

والصحيح أنهم خلق جديد خلقهم الله تعالى لخدمة أهل الجنة وقد وصفهم بقوله (إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً) (٣).

(بكأس) الكأس ما كان من الزجاج فيه خمر، ولا يسمى كأسا إلا إذا كان فيه خمر (٤) وإذا لم يكن فيه خمر فهو قدح وقد يسمى الخمر كأسا تسمية للشئ باسم محله .

وقيل : الكأس من الأوانى ، كل ما اتسع فمه ، ولم يكن له مقبض ، ولا يراعى كونه الخمر أو لغيره والمقصود هنا إنه كأس من خمر ، بدليل (يطاف) إذ لا يعقل ولا يليق في هذا المقام، أن يطاف عليهم بكأس فارغ ، وأما قوله(من معين) فإنه لتعيين المشروب .

(معين) اشتق من عين الماء ، ماء معين ، أى ظاهر للعيون ، أو خارج من العيون(٥) ، من عان الماء إذ نبع ، على أسم مفعول ، من عانه يعينه ، أى نظر إليه بعينه ، مثل مبيع ومبيوع ، أو مفعول مأخوذ

---

(١) سورة طور ، آية : ٢٤
(٢) سورة الإنسان ، آية ١٩
(٣) نفس السورة ، آية ١٩
(٤) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص٨٧
(٥) المفردات للراغب ، ص٣٥٥

من عين الماء وهو منبعه ومخرجه وهو بهذا من صفات الماء، فهو الذي ينبع من العين،أى يخرج ويجرى والمقصود وصف الكأس بأنه من ماء معيون، أى يرى بالعين أو هو من عين نابعة ولامانع من إرادة كل منهما ، فهو ينبع من عين ، ويرى بالعيون .

و(غول) من غال يغول غولا ، واغتاله اغتيالا ، إذ أخذه من حيث لم يدر،وهو حقيقة الإهلاك والغول والغائلة المهلك(١)، والغول أسم لجميع الأذى .

والمقصود أن الكأس الذي يشربونه من العين ، وهو كأس خمر الأخرة ، لا تغتال عقولهم ، فلا يحصل لهم أى نوع من أنواع الفساد منها السكر وذهاب العقل ورجع البطن والصداع ، وغير ذلك من الفساد .

(ينزفون) من نزف الماء نزحه كله من البئر شيئا بعد شئ ونزف دمه أو دمعه دمعه نزع كله ، ومنه قيل : سكران نزيف نزف فهمه بسكره (٢).

وقرئ (ينزفون) مبنى للمفعول ، من أنزف ، إذ نزف شرابه ، أو نزعت عقولهم وسواء كان من أنزف أو من نزف ، فمادته تدور حول النفاد والذهاب ، وهو إما ذهاب العقل أو ذهاب ونفاد الخمروخمر

---

(١) المفردات للراغب ، ص٣٦٩

(٢) المفردات للراغب ، ص٤٨٨

الأخرة منفى عنه كل هذا ، فهو لا يذهب العقل ، ولا ينفد ، بل هو باق أبدا .

و(قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ) القصر الحبس ، يقال قصرت اللقحة على فرسى حبست ذرها عليها وقصر السهم عن الهدف ، أى : لم يبلغه ، وأمرأة قاصرة الطرف ، لا تمد طرفها(١) إلى ما لا يجوز والطرف بسكون الراء جفن العين والطرف تحريك الجفن وعبر به عن النظر، إذ كان تحريك الجفن لازمه النظر(٢).

و(عين) جمع عيناء ، وهى الجارحة ، قيل لها عيناء لحسن العين وسعتها فهى نجل العيون (٣) أى : الواسعات شق العيون والعين النجلاء الواسعة الشق من غير قبح ، بل مع حسن، والمقصود الإخبار بأن لعباد الله الموحدين، أزواجا من الحور قد حبسن أعينهن الواسعة بأطرافهن عن غير أزواجهن حياء ، وجوز بعضهم أن يكون الطرف طرف غيرهن .

والمعنى : قاصرات طرف غيرهن عن التجاوز إلى سواهن لغاية حسنهن ، فلا يتجاوزهن طرف الناظر إليهن(٤)، والمعنى الأول أوفق وأليق ، إذ الإسناد ظاهر في حق الحور، لا في الأزواج وهن خلق جديد

---

(١) نفس المصدر ، ص٤٠٥

(٢) نفس المصدر ص٣٠٢

(٣) روح المعانى للألوسى م٨،ج٢٣، ص٨٩

(٤) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٨٩

على القول الصحيح .

(بَيْضٌ مَكْنُونٌ) (١) البيض جمع بيضة ، ويجمع على بيوض ، والمراد به هنا بيض النعام ، إما لحسن منظره في التناسق والتناسب في أجزائه ، وإما للونه، إذ العرب تشبه المرأة به ، لأن لونه بياض مشوب بصفرة ، وأجمل النساء المرغوب فيها ما كان منها أبيض مشوب بصفرة ، وإما لصفاء لونه ونعومة ملمسه ، وقيل :

أجملها وأحسنها ما كان منهن أبيض مشوب بحمرة ، ويؤيده قوله (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ) (٢) وأجيب بأن المشبهات بالبيض المكنون، غير المشبهات بالياقوت والمرجان .

وقيل : أن تشبيههن بالبيض المكنون بالنظر إلى بياض ابدانهن المشوب بصفرة ما عدا وجوههن وتشبيههن بالياقوت والمرجان بالنظر إلى بياض وجوههن المشوب بحمرة (٣).

ولا مانع من تشبيههن بكل ذلك ، فهى بالغات الحسن والجمال في لون أبدانهن وكذلك وجوههن وكذلك من حيث صفائهن ونعومة ملمسهن .

و(مكنون) من كننته ، أى جعلته في كن ، والكن ما يحفظ فيه

---

(١) نفس المصدر ، م٨، ج٢٣، ص٨٩

(٢) سورة الرحمن ، آية ٥٨

(٣) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٩٠

الشئ ، يقال كننت الشئ كنـا(١)، جعلتـه في كـن ، والمكنـون المسـتور المصون .

والمقصودهو تشبيه الحور العين ببيـض النعـام للونـه ونعومـة ملمسه ، أو تناسب وتناسق أجزائه أو بالبيض حين يقشر قبل أن تمسه الأيدى .

وكل هـذا يجمـع في حسـن وجمـال المنظـر في الصفـة ، وصفـاء الذات .

وقرئ سبعية (مكرمون) بفتح الراء مخففة ، وقرئ بتشـديدها ، وهو يدل على المبالغة في التكريم بأبلغ وأعظم المثوبات ، والتـى تليـق بأولى الهمم العالية(٢).

وقرأ عامة القرأ (سرر) بضم الراء ، وقرئ بفتحها ، وهى لغة بعض كلب وتميم ، يفتحـون عـين فعـل إذا كـان إسمـا مضاعفـا ، وأمـا الصفة نحو (ذلل) ففيها خلاف ، والصحيح عدم جوازه ، لأن السـماع ورد في الجوامد دون الصفات(٣) .

وقرئ سبعية (ينزفون) بضم الياء ، وفتح الزاى وقرئ سـبعية بكسرها.

---

(١) المفردات للراغب ، ص٤٤٢

(٢) قراءة بن مقسم ، انظر البحر المحيط ، ج٩، ص٣٥٩

(٣) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩ ، ص٣٠٣

فالأول :من نزف الشارب ، ثلاثيا مبنيا للمفعول ، بمعنى سكر وذهب عقله .

والثانى:من أنزف الشارب إذا ذهب عقله من السكر ، أو نفد شرابه .

والمعنى : أنهم لا تذهب عقولهم عنها(١)، أو لا تنزف خمورهم بل هى باقية أبدا .

(أولئك) مبتدأ خبره (لهم) و (رزق) مرتفع على الفاعلية للظرف الذي هو (لهم) خبر مقدم و(رزق) مبتدأ مؤخر ، وجملة (لهم رزق) خبر المبتدأ الأول (أولئك) (٢)، والمجموع لبيان حال عباد الله المخلصين في الجنة ، وهو بمثابة الخبر للمستثنى المنقطع في قوله (إلا عباد الله المخلصين) .

و (فواكه) بدل من (رزق) ويجوز أن يكون خبر المبتدأ محذوف ، والتقدير : ذلك الرزق فواكه .

وعلى القول بالبدلية ، فإما أن يكون بدل كل ، وعليه يكون رزقهم كله فواكه يأكلونها للتلذذ ،لا للحاجة لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات .

أو بدل بعض من كل ، وعليه يكون المقصود من إبداله منه

---

(١) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزى ، ج٧، ص٥٧

(٢) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣ ، ص٨٥

التنبيه بالأدنى على الأعلى ، أى لما كانت الفواكه حاضرة أبدا كان ما يؤكل للغذاء أولى بالحضور .

وقيل: هو عطف بيان (رزق) على أنه هو المقصود من هذا المن .

و(في جنات) يجوز أن يكون متعلقا بـ (مكرمون) أى : إن التكريم حاصل لهم في جنات النعيم ويجوز أن يكون متعلقا بـ (معلوم) ، ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لـ (أولئك) أو (لهم) (١) ، فهو خبر بعد خبر ، لبيان أحوال التكريم المختلفة هنالك ويجوز أن يكون حالا من المستكن في (مكرمون) أو في الظرف (لهم) .

و(على سرر) يحتمل أن يكون حالا من المستكن في قوله (مكرمون) والمعنى أنهم مكرمون بأعظم مثوبات التكريم ، ومن جملة تكريمهم كونهم مستقرين على لسرر في راحة وسرور ويجوز أن يكون حالا من المستكن في الظرف (فى جنات) ، ويحتمل أن يكون خبرا ثالثا لـ (أولئك) ، وتعدد الأخبار جائز عند الجمهور ، ويجوز أن يتعلق بـ (متقابلين) (٢).

و(متقابلين) يحتمل أن يكون حالا من المستكن في (على سرر)

---

(١) نفس المصدر م٨، ج٢٣، ص٨٦

(٢) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٨٦ ، والدر المصون للسمين الحلبى ج٩، ص٣٠٣

أو في(مكرمون) أو الظرف في جنات(١)

والمعنى: أنهم على السرر مستقرون حالة كونهم يقابل بعضهم بعضا .

و(يطاف عليهم) يحتمل أن يكون حالا من أحد الضميرين في الجارين (فى جنات) و (على سرر) ويجوز أن يكون صفة لـــ (مكرمون) (٢) والمعنى : أنهم في جنات النعيم على سرر مكرمون مطوف عليهم بكأس الخمر ذى اللذة .

ويجوز أن يكون حالا من الضمير في (متقابلين) .

و (بيضاء) صفة ثانية لـ (كأس) بعد الأول (من معين) وقيل: صفة للخمر(٣) ولم تذكر ، إلا إذا قيل : إن قوله (من معين) يدل عليه .

و(بيضاء) من صفات الماء، وقد وصفت بها الكأس لبيان نقائها وصفاء ما فيها .

و(لذة) صفة أخرى ، وصفت بالمصدر مبالغة ، أو على حذف المضاف ، أى :

ذات لذة أو على تأنيث لذ بمعنى لذيذ ، فيكون وصفا على

---

(١) نفس المصدر السابق ذكره

(٢) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٠٣

(٣) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٠٣

(فعل)، يقال لذ الشيء يلذ لذا ، فهو لذيذ ولذ(١) .

و (لاغول) صفة أخرى ، مع ابطال عمل (لا) ، وتكررت هنا لتقدم خبرها.

و(قاصرات الطرف) يحتمل أن يكون صفة مشبهة ، وأن يكون أسم فاعل على أصله ، وعلى الأول فالمضاف إليه مرفوع المحل والمعنى : قاصرات أطرافهن كمنطلق اللسان(٢).

وعلى الثانى يكون منصوبة ، والمعنى : قصرت أطرافهن على أزواجهن .

وأيا ما كان الوجه ، فالجملة عطف على ما قبلها ، وقيل هى في موضع الحال والمعنى: يطاف عليهم بكأس من معين والحال عندهم نساء قاصرات الطرف .

والمعنى على الأول : يطاف عليهم بكأس من معين ، ويطاف عليهم كذلك بحورعين ، وهذا المعنى يؤيده قراءة الجر في قوله(٣) (وحور عين) في سورة الواقعة غير أن الظرفية بالعندية هنا ، أبلغ من العطف بالظرفية هناك إذالعندية تستلزم

وجودهن في مجالس الشرب ، وذلك لإتمام اللذة والسرور ، أما

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٠٤

(٢) نفس المصدر ج٩، ص٣٠٦ ،٣٠٧

(٣) سورة الواقعة ، آية : ٢٢

الطواف عليهم بهن فإنه أقل في اللذة لعدم الخصوصية .

و(كأنهن بيض مكنون) (١) جملة وصفية للحور العين ، تبين كمال صفاء لونهن فإنه يبهج النظر ويشرح الصدر .

وإيثار الإشارة بـ (أولئك) وهو للبعيد ، مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار بعلو طبقتهم ، ورفعة منزلتهم في الفضل والإكرام ، وذلك بسبب ما أتصفوا به من الإخلاص في العبادة لله تعالى .

وإيثار التنكير في لفظ (رزق) للتعظيم ، فهو رزق لا يقدر قدرة إلا الله والمعلومية ليست للتقييد بل للبيان والوصف من آيات أخر ، ولذا قال في آيه أخرى (يرزقون فيها بغير حساب) .

وإيثار الجملة الأسمية على الفعلية في قوله (وهم مكرمون) لبيان استمرارية وثبوت هذه الحالة لهم أبدا ، وتأكيد هذا ثبت بضمير الفصل (هم) وإن كان واقعا بتدأ ، إذ انه يفيد بعد التأكيد خصوصية هذا في حقهم.

وجملة (في جنات النعيم) تؤكد هذا الاختصاص ، إذ الإضافة على معنى لام الاختصاص المفيدة للحصر، وإيثار لفظ (للشاربين) دون (لهم) ليعود لعباد الله المخلصين ، لإفادة الالتذاذ بشرب الخمر للشارب كائنا من كان ، فالإظهار دون الإضمار هنا ، لحصول اللذة

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٠٣

لكل من يشرب من تلك العين .

وإيثار نفى المصدر في قوله (لا فيها غول) دون الفعل منه لإفادة نفى جميع أنواع الفساد ، المرتبة على شرب الخمر،إذ نفى الشمول هنا هو المقصود، بخلاف النفاد منها أو عنها ، فالمقصود فيه الحدث فجاء نفى الفعل (ينزفون) وهو فى كل منها من باب نفى ما هو أهم عندهم ، وما هم به أعنى .

ولايخفى أن تقديم الظرف(فيها) يدل علىالتخصيص يعنىأن هذا النفى بخصوص ذلك الكأس من الخمر ، فلا يتصدع منها ، وليس منفيا عن غيره .

المعنى:

لكن هؤلاء الذين هم عباد الله المخلصون لهم رزق عظيم معلوم وذلك الرزق المعلوم ، هو الفواكه التى خلقها الله لهم في الجنة ، وهم مكرمون بكرامة الله التى أكرمهم الله بها ، في بساتين جنات النعيم يقابل بعضهم بعضا علىالسرر ويطوف الخدم عليهم بكأس من خمر جارية ظاهرة لأعينهم غيرغائرة، يلتذ بها شاربوها وليس فيها ما يؤذيهم من مكروه ، ولا ينفذ عنهم هذا الشراب ، بل هو مستمر أبدا وعند هؤلاء المخلصين من عباد الله في الجنة النساء اللواتى قصرت أطرافهن على بعولتهن ولا يردن غيرهم ، ولا يمددن

أبصارهن إلى غيرهم ، وهم نجل العيون ، مع شدة بياض بشرتهن وصفاء ذلك صفاء اللؤلؤ المستور، فعباد الله الذين أخلصوا له الدين ، في نعيم مقيم لا ينفد ولا ينقطع أبدا بل هو سرمدى أبدى

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- إخلاص الدين لله تعالى وعبادته وطاعته سبب يوصل إلى السعادة في الأخرة بدخول الجنة ، وفى الدنيا بالأمان والطمئنينة .

٢- ما ذكر في الجنة من طعام وشراب، مما له شبيه في الدنيا ، فقد حصل له اتفاق في الاسم فحسب أما هما فمختلفان في الحقيقة والكنه .

٣- أن ولى الله الذي أنعم عليه بدخول الجنة ، وقد أحيط بهذا النعيم الذي لا ينفد ولم يكن له نظير من قبل ينزاح عنه بسببه ما كان من هموم ومشاق لاقته في الدنيا وكأن لم تكن .

قول الله تعالى ذكره :

فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئنك لمن المصدقين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون * قال هل أنتم مطلعون * فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين * إن هذا لهو الفوز العظيم

صدق وعد الله تعالى ، ورؤية ما هو عليه القرناء في الآخرة وتذاكر حالهم التى كانت في الدنيا .

ولما كان ذلك الاجتماع لأهل الجنة ، وهو اجتماع للسرور ، وكان السرور لا يتم إلا بالمنادمة وكان أحلى وأجمل المنادمة ، هو ما يذكر بحلول نعمة أو انحلال نقمة ، فقد تسبب عن ذلك قولهم بعضهم لبعض ، وفى ذلك إشارة إلى فراغ البال وصحة العقل بالإضافة في المقال ، فقال (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)

و(قرين) جمعه قرناء ، وهو اجتماع شيئين في معنى من المعانى ، يقال : فلان قرن فلان في الولادة وقرينه وقرنه في الجلادة وفى

القوة ، وفى غيرها من الأحوال(١)، والمقصود به هنا الصاحب أو الشريك.

و (المدينون) (٢) المدين ، من دان ، وهو الذي عليه دين وهو هنا بمعنى الجزاء والمعنى : إنا لمجزيون بما نفعله في الدنيا .

و(مطلعون) من طلع وأطلع ، إذا بدا وظهر ، ويقال : امرأة طلعة قبعة ، تظهر رأسها مرة وتستر أخرى(٣) و(سواء) يقال : مكان سوى وسواء وسط ، ويقال : سواء وسوى وسوى ، أى : يستوى طرفاه ، ويستعمل ذلك وصفا وظرفا، وأصل ذلك مصدر (٤).

وسمى الوسط سواء ، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب وتقول العرب : أنحنى سوائى ، أى : وسطى(٥) .

والمعنى : فأطلع على أهل النار فرأى قرينه في سط الجحيم .

و(كدت) فعل موضوع لمقاربة الوقوع ، ويأتى منه الماضى والمضارع .

وقد اشتهرعلى ألسنة كثير من العلماء : أن نفيها إثبات،وإثباتها نفى وقيل : أنها تفيد على وقوع الفعل بعسر، وقيل :

---

(١) المفردات للراغب ، ص٤٠١
(٢) نفس المصدر ص١٧٥
(٣) المفردات للراغب ، ص٣٠٦
(٤) نفس المصدر ، ص٢٥٢
(٥) الدر المصون للسمين ج٩ص٣١٣

نفى الماضى إثبات ، ونفى المضارع نفى .

والصحيح أنها كاغيرها ، نفيها نفى وإثباتها إثبات، فمعنى : (كاد يفعل قارب) الفعل ولم يفعل ، و: ما كاد يفعل ، ما قارب الفعل ، فضلا عن أن يفعل ، فنفى الفعل لازم من نفى المقاربة عقلا (١).

ومعناه هنا : قارب هذا القرين أن يردى مع قرينه في جهنم ، لكن لم يكن .

و(لتردين) الردى الهلاك ، والتردى التعرض للهلاك كما في قوله تعالى (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) (٢).

والمعنى : قارب قرينه أن يرديه ، أى يجعله متعرضا للهلاك الذي رأه واقعا فيه و (المحضرين) المحضر اسم للحاضر المشاهد المعاين ، والمعنى : ولولا أن الله أنعم على بهدايته والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت ، لكنت من المحضرين معك في عذاب الله تعالى(٣).

و (الفوز) الظفر بالخير مع حصول السلامة ، وسميت المفازة التى فى الأصل قفر، من باب التفاؤل إذ القفر كما يكون سببا للهلاك فقد يكون سببا للفوز، فيسمى بكل واحد منهما حسبما يتصور منه ويعرض فيه(٤).

---

(١) الاتقان في علوم القرآن للإمام السيوطى ، تحقيق بازمول ، ص٦٦٨

(٢) المفردات للراغب ، ص١٩٤

(٣) جامع البيان ، للإمام الطبرى ،مك١٢، ج٢٣، ص٥٩

(٤) المفردات للراغب ،ص٣٨٧

وتقدم القراءات فيما كان ذا همزتين وهو ، قوله (إنك) (١) (ءإنا لمدينون) وقراء عامة القراء(المصدقين) بتخفيف الصاد مفتوحة ، وتشديد الدال ، وهو من التصديق ، أى : إنكار قرينه التصديق أنه يبعث.

والمعنى : أتصدق بأنك تبعث بعد مماتك ، وتجزى بعملك وتحاسب ، والذى يدل على ذلك قوله قبل (ءإذا متنا وكنا ترابا وعظاما ءإنا لمدينون) ، وقرئ بتشديد الصاد والدال(٢) ، والأصل فيه : المتصدقين ثم أدغمت التاء في الصاد، وهو من التصدق ، وقد أيد بعضهم هذا المعنى بما روى عن فرات بن ثعلبة البهرانى فى قوله (إنى كان لى قرين) قال : إن رجلين كانا شريكين ، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار وكان أحدهما له حرفة ، والأخر ليس له حرفة ،فقال الذي له حرفة للآخرة ، ليس لك حرفة ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك ، فقاسمه وفارقه ،ثم إن الرجل أشترى دارا بألف دينار كانت لملك قد مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار أبتعتها بألف دينار، قال : ما أحسنها، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبى هذا قد أبتاع هذه الدار بألف دينار وإنى أسألك دارا من دور الجنة فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج إمرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاما ،فلما أتاه قال :إنى تزوجت هذه المرأة بألف دينار،

---

(١) انظر ص:

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ، ج٩، ص٣٦٠

قال ما أحسن هذا فلما انصرف قال يارب إن صاحبى تزوج إمرأة بألف دينار ، وإنى أسألك أمرأة من الحور العين، فتصدق بألف دينار ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم اشترى بستانين بألفى دينار، دعاه فأراه،فقال : إنى ابتعت هذين البستانين فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يارب إن صاحبى قد أشترى بستانين بألفى دينار وأنا أسألك بستانين من الجنة ، فتصدق بألفى دينار ، ثم إن الملك أتاهما فتوقاهما ثم إنطلق بهذا المتصدق فأدخله دارا تعجبه ، فإذا امرأة تطلع يضئ ما تحتها من حسنها ، ثم أدخله بستانين ، وشيئا الله به أعلم فقال عند ذلك : ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا ، قال : فإنه ذاك ، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة قال : فإنه كان لى صاحب يقول (ء إنك لمن المصدقين) قيل له : فإنه في الجحيم قال : فهل أنتم مطلعون فاطلع فرآة في سواء الجحيم ، فقال عند ذلك (الله إن دت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين(١).

قالوا : وهذا دليل على أن ما أعطاه الله إياه ، كان على الصدقة لا على التصديق والمعنى الأول هو المتوجه ، لموضوع السورة ، إذ موضوعها إقامة الأدلة على صدق البعث والنشور والمجازاة على الأعمال بعد الموت ، وسياق الآيات يؤكد هذا، ولصحة القراءة الأولى ، وهى بتخفيف الصاد والمراد منه التصديق بالبعث ولا مانع من أن

(١) سورة الصافات ، آية ٥٧، والأثر خرجه ابن جرير م١٢ج٢٣ص٥٩

يكون من جملة الأعمال المسببة في إنعام الله على المحسن يوم لقيامة تصدقه بما أعطاه الله من مال ونعم ، وأن هذا العمل من جملة إيمانه وتصديقه بالبعث إذ الإيمان والتصديق بالبعث يستلزم عملا صالحا غير أن الأصل هو التصديق بالبعث والنشور والمجازاة على الأعمال يوم القيامة ، وما سوى ذلك من الأعمال الصالحة يدخل بالتبع .

وقرئ سبعية (مطلعون) بتشديد الطاء مفتوحة ، وبفتح النون ، وقرئ معها(فاطلع) (١) ماضيا مبنيا للفاعل ، بهمزة الوصل (افتعل) من الطلوع ، وقرئ مشددا مضارعا منصوبا على جواب الاستفهام .

والتقدير: هل أنتم مطلعون حتى أطلع أنا أيضا ، فاطلعوا وأطلع هو بعد ذلك فرآه في سواء الجحيم ولا بد من تقدير اطلع بعد ذلك ليصلح ترتب (فرآه) على ما قبله ، و(هل أنتم مطلعون) عليه بمعنى الأمر تأدبا ومبالغة .

وقرئ سبعية (مطلعون) بسكون الطاء وفتح النون ، وقرئ معها (فأطلع) بضم الهمزة مقطوعة ، وكسر اللام ، ماضيا مبنيا للمفعول(٢).

وهذه القراءة تحتمل أن تكون من معنى : مقبلون ، من قولك

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبي ، ج٩، ص٣٠٩

(٢) نفس المصدر ج٩، ص٣٠٩

أطـلع علينا فلان، أى : أقبل ، ويحتمل أن يكون الفعل متعديا ومفعوله محذوف، أى : أصحابكم .

وقـرئ (مطـلعون) خفيفة الطاء مكسورة النون ، وقرئ معها (فأطلع) مبنيـا للمفعول(١).

وقد ردت هذه القراءة ، للجمع بين النون ، وضمير المتكلم ، إذ كـان قياسـها (مطلعى) ، لأن أصله : مطلعوى فأبدل وأدغم نحو : جاء مسلمى العاقلون(٢).

وقـد وجـه هذه القراءة ابن جنى بإجراء اسم الفاعل فيها مجرى المضارع فيكون عنده : مطلعون مجرى يطلعون(٣).

وقـال الإمام الزمخشرى : أو شبه اسم الفاعل في ذلك بالمضارع لـتأخ بيـنهما كأنـه قـال : يطلعون، وقد ذكر فيها توجيها أخر فقال: أراد مطلعون إيلى ، فوضع المتصل موضع المنفصل ، وهو ضعيف لا يقع إلا في الشـعر(٤) ، ورده أبو حيان فقال ، إن هذا ليس من مواضع المنفصل حتى يدعى أن المتصل وقع موقعه.

قال السمين الحلبى : إنما لم يجز ما ذكر، لأنه إذا قدر على المتصل

---

(١) نفس المصدر ، ج٩ ص٣٠٩

(٢) ردها أبو حاتم وغيره ، انظر الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٠٩

(٣) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٠٩

(٤) الكشاف للزمخشرى ، ج٣، ص٣٤١

لم يعدل إلى المنفصل(١).

وأيا ما كان فـ: طلع و أطلع بالتشديد وأطلع بالتخفيف والهمز بمعنى واحد واللزوم حاصل في الجميع لوحدة المعنى في هذه المادة.

(أطلع) المبنى للمفعول مع الهمز نائب فاعله ضمير القائل والفاعل هم المخاطبون وإطلاعهم إياه باعتبار التسبب كأنه لما أراد الاطلاع وأحب أن لا يستبد به أدبا عرض عليهم أن يطلعوا فرغبوا واطلعوا، فكان ذلك وسيلة إلى إطلاعه ، فكأنهم هم الذين أطلعوه ، وهذا التقدير لأن الفاء في (فاطلع) فصيحة والعطف على هذا المقدر(٢).

والعشرية من هذه القراءات في (مطلعون) التشديد والتخفيف في الطاء ، مع فتح النون ، و(اطلع) بالماضى المعلوم المشدد على القراءة الأولى، والمخفف المجهول في الثانية ، وما سوى ذلك من القراءات شاذ(٣).

والمقصود من الآية هو إرائتهم سؤ حال قرينه الذي لم يصدق بالبعث ، سواء كان قوله (مطلعون) يراد به الأمر أو العرض .

وقرأ عامة القراء (بميتين) بياءين بينهما تاء ، والموت زوال

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣١٠

(٢) روح المعانى للألوسى م٨،ج٢٣، ص٩٣

(٣) البحر المحيط لأبى حيان ج٧ص٣٦١

القوة الحيوانية وإبانة الروح عن الجسد (١).

والمعنى:أنحن مخلدون فما نحن بميتين ، أى فمن شأنه الموت.

وقرئ (بمائتين) (٢) بإبدال الياء الأولى همزة ، والمأنث هو الحيوان المتحلل وهذا فرق بينهما ، كما يفرق بين الميت بالتخفيف ، والميت بالتشديد ، فالأول .

وجملة (يتساءلون) حال من فاعل (أقبل) و (وأقبل) معطوف على (يطاف) والتقدير : يشربون من كأس من معين فيتحدثون ، وهذا حال الشرب حيث يجلسون وهو ذكر لحالهم وقت الشرب ، فهم يتحدثون فيما كان لهم من أمور الدنيا ، وما أحلى ما فات عند رفاهية الحال ، وفراغ البال .

وقوله (فرأه) عطف على قوله (فاطلع) (٣) أى : فرأى قرينه في وسط الجحيم .

وقوله (تالله) قسم ، وفيه معنى التعجب ، وجواب القسم قوله (إن كدت لتردين) و(إن) مخففة من الثقيلة والتقدير : إنه كدت ، ويمكن أن تكون (إن) نافية واللام في قوله (لتردين) فارقة أو بمعنى (إلا) (٤) وقوله (إلا موتتنا) منصوب على المصدر ، والعامل

---

(١) المفردات للراغب ، ص٤٧٧

(٢) الدر المصون للسمين ج٩، ص٣١٤

(٣) نفس المصدر ج٩ ص٣٠٨

(٤) الدر المصون للسمين الحلبى ج٩، ص٣١٣

فيه الوصف قبله(١)، ويكون استثناء مفرغا ، والتقدير: أفما نحن بميتين موتة إلا موتتنا الأولى.

ويجوز(٢) أن يكون منقطعا ، والتقدير : لكن الموتة الأولى كانت لنا في الدنيا وهو نظير قوله تعالى (لا يذقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) وقوله (الأولى) أى : التى كانت في الدنيا ، وهى متناولة عند أهل السنة لما في القبر بعد الإحياء للسؤال ، لعدم الاعتداء بالحياة فيه لكونها غير تامة ولا قارة(٣).

وقوله (أفما نحن بميتين) إما أن يكون رجوع إلى محاورة جلسائه الذين أخبرهم عن قرينه ، بعد إتمام الكلام معه ، على طريق التبجح والابتهاج بما أتاح الله له من الفضل العظيم والنعيم المقيم وفيه تعريض للقرين بالتوبيخ ، ويجوز أن يكون من كلام المتسائلين جميعا، وأن يكون من نقمة كلام القائل يسمع قرينه على جهة التوبيخ(٤).

والأول أولى ، لاتصال الكلام بعضه ببعض .

والاستفهام فيه للتقرير ، وفيه معنى التعجب .

وقوله (إن هذا لهو الفوز العظيم) يجوز أن يكون من كلام

---

(١) نفس المصدر ج٩، ص٣١٤
(٢) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٩٤
(٣) نفس المصدر م٨، ج٢٣، ص٩٣
(٤) نفس المصدر م٨، ج٢٣، ص٩٤

القائل، وذلك لظهور النعيم الذي هم فيه ، ولم يصرح به أستغناء بظهوره.

وجوز أن يكون من كلام البارى سبحانه ، وذلك على سبيل التقرير: لقول ذلك القائل(١) ، وتصديق له، مخاطبا به نبيه ﷺ وامته للأعتناء بشأن الخبر .

وإيثار التعبير بالماضى قوله (فأقبل) مع أنه معطوف على مضارع ، وهو قوله (ويطاف عليهم) وذلك للإشعار بالاعتناء بهذا المعطوف بالنسبة إلى المعطوف عليه ، إذ فكيف لا يقبلون على الحديث ، وهو أعظم لذاتهم التى يتعاطونها ، فى حالة شربهم، إضافة إلى أن التعبير بالماضى عن المستقبل يشير إلى تحقيق الوقوع حتما ، وأنه في حكم الذي قد وقع .

وإيثار التعبير دلالة بالفاء هنا (فأقبل) دون الواو ، كما في الموضع الأول لبيان(٢) حصول الترتيب ، وأن المحادثة في ما كان لهم من قرنائهم في الحياة الدنيا جاء بعد ما يكونون في غاية النشوة والبهجة وفيما يكون به الحديث زيادة في البهجة والسرور ، إذ الحديث لا يحسن إلا بعد أن يجتمع في المجلس لوازمه وأصوله التى يجمل بها وأما دلالة الواو في الأول فلمجرد الجمع بين المعطوفات ، وليس في الواو دلالة

---

(١) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٩٤

(٢) يراجع فى هذا دلالة حروف العطف في كتاب نتائج الفكر ، لأبى القاسم السهيلى ، ص ٢٤٩

ترتيب أو تعقيب .

وإيثار التعبير بقوله (لمدينون) هنا ، دون (لمبعوثون) كما في الموضع الأول لأن المقصود هنا إنكار الجزاء والحساب على الأعمال بعد البعث، والأول إنكار واستبعاد البعث بعد الموت ، والسوق في كل يدل على ذلك ، إذ كأنه يقول : أنت المصدق طلبا للجزاء في الأخرة. والتنصيص على كل منهما لاستبعاد نفى الاحتمال ، وإن كان كل منهما يستلزم الأخر ، فجاء كل موضع بما يناسبه .

وإيثار تقديم لفظ (ترابا) على(عظاما) في قوله (ترابا وعظاما) وإن كان الترتيب يقتضى تقديم (عظاما) على (ترابا) عادة وطبعا ، إذ هو المشاهد من الأجساد البالية .

لكنه عدل عنه بتقديم ما هو أهم ، وما هم به أعنى إذ إعادة ما صار ترابا أشد في الاستبعاد من إعادة العظام والكلام هنا مع المنكرين للبعث والجزاء بعد الموت فكان تقديم ما هو أشد استبعادا في أعتقادهم أولى وأهم وتقديم الكلام بعضه على بعض ، إنما يكون بحسب تقدم المعانى في الجنان والأولوية ، والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء ، إما الزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، وقد يكون التقديم بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى (١).

---

(١) نتائج الفكر للسهيلى ، ص٢٦٧

وإيثار تقديم (نحن) بعد النفى (ما) من قوله (وما نحن بمعذبين) لبيان أن المراد من الخبر أستمرار النفى وتأكيده ، لا نفى الاستمرار ، إذ المقصود استمرار هذه النعمة الجليلة التى هم فيها ، وأنها لا تزول ابدا ، هذه النعمة هى المذكورة من قوله (أولئك لهم رزق معلوم) الآيات ، إذ زوال النعيم نوع من العذاب ، وهو من أشد أنواعه ، بل إن تصور الزوال أكبر عذاب ، ولا يلذ معه عيش .

والعدول عن إثبات استمرار النعيم لهم إلى استمرار نفى العذاب عنهم لأن نفى العذاب أسرع خطورا ببال من لم يعذب عند مشاهدة من يعذب ، أو أن ذاك لأن درء الضرر أهم من جلب المنفعة.

المعنى :

ومثل ما وقع لأهل النار من التساؤل لبعض على سبيل التخاصم ، وقع لأهل الجنة من التساؤل بعضهم لبعض ، ولكن شتان ما بين الحالين.

فالحالة الأولى يحيط بها الهموم والتعاسة والبؤس واليأس، والحالة الثانية يشملها الحبور والسعادة والنعيم ، إذ سؤالهم كان عن أحوالهم التى خلصوا منها بعد أن كادت ترديهم ، كما أردت بأهل النار ولذا عرض نموذجا منها مؤكدا لقرين مع قرينه ، ظن انه لا يخلص من شره ، فكان نجاته منه نعمة كبرى ، إذ كاد يرديه معه في وسط الجحيم ،

لـولا وجـود نعمـة الله عـليه ، فقـد مـن عـليه بأن أمن وصدق بالجزاء والـبعث بعـد المـوت، ولم يسـمع لوسوسـة القـرين الداعيـة إلى عدم التصديق .

وزيـادة في الـنعمة فقـد اطلعه الله على حال ذلك القرين السؤ وهـو يعـذب في وسط الجحيم ، وقد علم بأن حياة أهل الجنة في النعيم أبديـة ، وذلـك هو الفوز الذي لا يدانيه فوز ، والفلاح الذي لا يوازيه فلاح .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- أحـوال الـناس في الأخـرة بين تساؤل غايته الحسرة والندامة وزيادة الـبؤس وتسـاؤل غايـته التذكير بنعمة الله الكبرى على النجاة من أهواء الدنيا وقرناء السؤ .

٢- وجـوب الحذر من قرناء السؤ ، وليكن القرين والصديق ممن يعين على طاعة الله تعالى والتصديق بما جاء في كتابه العزيز .

٣- اشـارت خفيـة لبعض أحوال الأخرة في نقل صور أحوال أهل النار لأهل الجنة والتى ترشد إلى أهمية العلم في نقل صور أحوال الـناس أو غيرهم من مكان إلـى مكان أخر عن طريق الملاحظة والتجربة ، وهو ما يسمى اليوم بالتقنية الحديثة

٤- أهـل الجـنة يحـبون حياة أبدية مستمرة سرمدية لا موت فيها ، وهذا يزيدهم حبورا على حبورهم .

قول الله تعالى ذكره :

لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ * أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ * وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ *

وعيده تعالى بسوء النزل لمنكرى البعث بعد الموت

ولما فات الوصف السابق هذا التشويق إلى هذا النعيم ، رمى في نعته رمية أخرى سبقت العقول وتجاوزت حد الإدراك، وعلت عن تخيل الوهم في استفهام منفرمن ضده ، بمقدار الترغيب لمن كان له لب ، فيفرق بين الجزاء البعيد المنال ، البديع المثال ، وبين هذا النزل الذي هو شديد الكراهة بفيض المنظر ، وهذا مجرد نزل فضلا عما أعد لهم من العذاب الأليم ، وكان هذا بمثابة التنبيه على عدم المعادلة بين ما ذكر للمصدقين ، ونزل المكذبين ، بوجه ما ، فلذا قال (أذلك

خـير نـزلا) (ونـزلا) (١)الـنزل ما يعد للنازل من الزاد ، وهو الفضل والريع في الطعام ويستعمل في الحاصل من الشئ .

و(الـزقوم) اسم شجرة صغيرة الورق مرة كريهة الرائحة ذات لـبن ، إذا أصـاب جسـد إنسـان تـورم ، وهـى بـبلاد تهامـة سميت بها الشجرة الموصوفة بما في الآية .

فالزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار(٢)

و(فتـنة) أصـل الفتـنة إذابة المعدن في النار ، لتظهر جودته من رداءتـه ، واستعمل فىإدخال الإنسان النار، قال الله تعالى (يَوْمَ هُمْ عَلَى الـنَّارِ يُفْتَـنُونَ ، ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ) (٣) أى : ذوقوا عذابكم.

و(أصـل) أصـل الشئ قاعدته ، وما منه الشئ ، وما يبين عليه غـيره ، والمقصود بالأصل هنا المنبت فـ (أصل الجحيم) منبتها في قعر النار ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها(٤).

و(طـلعها) هو طلع النخل ، وذلك تشبيها بالطلوع ، والطلع هـو أول ما يبدو من الشجر ، وقبل أن تخرج شماريخه ، وهو أبيض غض

---

(١) المفردات للراغب ، ص٤٨٩
(٢) المفردات للراغب ، ص٢١٣
(٣) سورة الذاريات ، آية ١٣،١٤
(٤) روح المعانى للألوسى م٩، ج٢٣، ص٩٥

مستطيل(١).

لكنه هنا في شجرة الزقوم مخلف ، فطلعها يشبه رؤوس الشياطين، فهى شديدة قبح المنظر ، وقبح الطعم والريح .

و (الشياطين) جمع شيطان ، وهو من شطن إذا تباعد ومنه بئر شطون ، وقيل :

هو من شاط إذا احترق غضبا وقيل : هى حية خفيفة الجسم(٢)، أو حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف(٣)، سميت الشجرة بذلك لقبح منظرها.

فشبه تلك الشجرة برؤوس الشياطين ، وذلك على نحو ما قد جرى به استعمال المخاطبين بينهم، إذ استعمالهم قد جرى بينهم في مبالغتهم إذا أراد أحدهم المبالغة في القبح قال : كأنه شيطان وإذا أرادوا المبالغة في مدح صورته قالوا : ملك أو أن يكون مثل برأس حية معروفة عند العرب تسمى شيطانا وفى كل أراد المبالغة في بيان شدة قبح منظر هذه الشجرة النابتة في أصل الجحيم .

و(لشوبا) الشوب بفتح الشين مصدر بمعنى الخلط والمزج ، وسمى العسل شوبا إما لكونه مزاجا للأشربة ، وإما لما يختلط به من

---

(١) نفس المصدر م٩، ج٢٣، ص٩٥

(٢) المفردات للراغب ، ص٢٦١، وجامع البيان للطبرى م١٢، ج٢٣، ص٦٤

(٣) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى ، ج٧، ص١٣٥

الشمع ، وقيل : ما عنده شوب ولا روب أى : عسل ولبن (١).

والمقصود بالشوب هنا الذي هو مزج وخلط ، إذ خلط كل شئ بغيره شوب ، هو خلط من الماء الحار يشربونه على شجرة الزقوم ، أو هو صديد مشوب بماء حميم يقطع أمعاءهم إذ الحميم هو الماء الحار المتناهى في الحرارة .

ونظيرهذا قوله تعالى (لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً، إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً) (٢) قيل : الغساق هو الدم والقيح(٣).

فهذا الحميم مشوب بالغساق ، وهنا الحميم مشوب بالصديد أو غيره، وهذا الجزاء في مقابلة ما سيمزج للمتيقن،من الزنجبيل والكافور والمسك في الجنة، قال تعالى (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً)(٤) ويقول سبحانه(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً) (٥) ويقول جل ذكره (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ.... الآية(٦).

و(ألفوا) ألفيت وجدت ، فألفوا : وجدوا .

والمعنى: أنهم وجدوا آبائهم - والضمير عائد لقريش(٧)

---

(١) المفردات للراغب ، ص٢٧٠
(٢) سورة النباء ، آية ٢٤، ٢٥
(٣) حاشية زادة على البيضاوى ج٧، ص١٣٦
(٤) سورة الإنسان ، آية : ١٧
(٥) سورة الإنسان ، آية : ٥
(٦) سورة المطففين ، آية : ٢٥، ٢٦
(٧) البحر المحيط لأبى حيان ، ج٧، ص٣٦٤

ضالين فاتبعوهم على ضلالهم ، فهم مقلدة آبائهم في ضلالهم .

و(يُهْرَعُونَ) الإهراع الإسراع الشديد، وقيل : هو أسراع فيه شبه رعدة والهرع السريع ، المشى والبكاء (١).

و (منذرين) جمع منذر ، وهو من الإنذار ، والإنذار إخبار فيه تخويف ، كما أن التبشير إخبار فيه سرور ، وهو يقع على كل شئ فيه إنذار ، إنسانا كان أو غيره والنذر جمع نذير(٢).

والمعنى : والله قد أرسلنا في هؤلاء الأقوام الأولين من المرسلين، مخوفين ومحذرين من عاقبة مخالفة أمر الله تعالى .

و (عاقبة) تستعمل العاقبة با لإضافة في العقوبة والعذاب وذلك نحو قوله تعالى (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى) (٣) وقوله (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ) (٤) فالعقوبة والمعاقبة والعقاب يختص بالعذاب .

أما العاقبة عند إطلاقها فتختص بالثواب ، وذلك نحو قوله تعالى (والعاقبة للمتقين) (٥).

والأصل في اشتقاقها من العقب ، وهو مؤخر الرجل(٦).

---

(١) المفردات للراغب ، ص٥٤٢
(٢) نفس المصدر ، ص٤٨٧
(٣) سورة الروم ، آية : ١٠
(٤) سورة الحشر ، آية : ١٧
(٥) سورة الأعراف ، آية : ١٢٨
(٦) المفردات للراغب ، ص٣٤٠

والمعنى هنا : فانظر يا محمد ، أو يا كل من يتأتى منه التمكن من مشاهدة أثار الأولين ، إلى العذاب الذي حل بهم .

وقرأ جمهور القراء (لشوبا) بفتح الشين ، وهو مصدر على أصله وقيل : يراد به أسم المفعول ، وقرئ بضم الشين (١).

قال الزجاج : المفتوح مصدر والمضموم اسم بمعنى (المشوب) كالنقض بمعنى المنقوض(٢)، وكاالقفل بمعنى المقفول ، فهو ما يشابه به والأول مصدر سمى به .

و(نزلا) منصوب على التمييز ، لقوله (خير) (٣).

والمعنى : أذلك الرزق المعلوم الذي حاصله اللذة والسرور خير نزلا وحاصلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ، والمقصود من التفاضل بين النزلين التوبيخ والتهكم .

ويجوز أن ينتصب على الحال .

والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير حال كونه نزلا ، وفيه من التهكم ما في التمييز، غير أن الحمل على الحال أوفق معنى ، إذ المقصود المفاضلة بين تلك الفواكه ، وهذا الطعام في هذه الحال لا التفاضل في الوصف ،

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٢٠٦

(٢) معانى القرآن للزجاج / ٤ / ٣٠٧

(٣) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٢١٤

فالحال في النزلية أدخل معنى من الأخر .

والخيرية على التمييز بالنسبة إلى ما اختاره الكفار على غيره .

و (ثم) للتراخي الزماني ، وذلك بعد أن يملؤالبطون من تلك الشجرة يعطشون ويؤخر سقيهم زمانا ليزداد عطشهم ، فيزداد عذابهم ، وقيل : للتراخي الرتبي لأن شرابهم أشنع من مأ كولهم ، فيشير بـ (ثم) إلى هذه الشناعة والكراهة .

واعترض على الأول ، بأنه يأباه عطف الشراب بالفاء في آية أخرى (فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ) (١).

فلا بد من عدم توسط زمان أو شيء أخر، كطول الاستقاء بينهما لكن ملؤهم البطون أمر ممتد ، فباعتبار ابتدائه يعطغف بـ (ثم) وباعتبار أنتهائه بالفاء(٢).

وقيل : يجوز أن يكون شرب الشراب الممزوج بالحميم متأخرا بزمان عن ملئهم البطون دون شرب الحميم وحده .

ويجوز أن يكون الحال مختلفا، فتارة يتأخر الشرب مطلقا زمانا، وأخرى لايتأخر كذلك ، والأول أوفق معنى وحالا(٣).

و (لقد ضل قبلهم) جواب قسم محذوف ، والتقدير : وتالله

---

(١) سورة الواقعة ، آية ٥٣، ٥٤

(٢) حاشية الشهاب ، ج٧، ص٢٧٤

(٣) روح المعاني للألوسي ، م٨، ج٢٣، ص٩٦

قد أرسلنا رسلا منذرين إلى أمم قبل هؤلاء الظالمين الذين جعلت شجرة الزقوم فتنة لهم ، وهم قريش ، فضلوا عن سواء السبيل ، كما ضل هؤلاء ، فأخذهم العذاب الذي يستحقونه فاللام في قوله (ولقد) موطئة للقسم.

وقوله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ) تفسير وبيان له ، وهو قسم أخر، وتكريره لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين.

و(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) استثناء منقطع ، من (الْمُنْذِرِينَ) لأنه وعيد ، وعباد الله المخلصين ، لا يدخلون في هذا الوعيد ، ويمكن أن يكون متصلا ، وذلك عن طريق العموم والانقطاع في القول الأول كان عن طريق الخصوص بالمنذرين ووجه الانقطاع هنا أولى ، إذ السياق يؤكد حصول هذا الوعيد ، ووقوعه بالمخالفين المذكورين ، أما عباد الله المخلصين فلهم جنات النعيم والسرور المقيم وإيثار تقديم الجار والمجرور في قوله (لمثل هذا فليعمل) لإفادة الحصر .

والمعنى : لنيل مثل هذا الأمر الجليل ينبغى أن يعمل العاملون ، لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام ، المشوبة بفنون الآلام (١).

ووجه الحصر هنا ، للإشارة إلى العمل الموصل لهذا النعيم المقيم فهو النهاية التى يعول عليها كل عامل ، إذ هوالإيمان بالبعث

---

(١) حاشية البيضاوى ، ج٧، ص٢٧٣

والجزاء بعد الموت ، الذي مبعثه الإيمان بالله تعالى إلها خالقا والعمل على مرضاته بفعل الطاعات ، وهناك من الأعمال الأخرى المرتبطة بهذه الأصول ، لكن الحصر كان فيما تقدم، إذ هى الأصول المتفرع عنها غيرها ، فهذا وجه الحصر .

و(مثل) في قوله (لمثل) غير مقحمة إن كان (هنا) إشارة إلى مشخص من حيث تشخصه ، وأما إن كان الإشارة إلى الجنس فهى مقحمة ، كما في قولهم (مثلك لا يبخل) كذا قيل(١).

والواجب أن ينزه كلام الله تعالى عن هذه الألفاظ ، التى يرددها بعض المفسرين – مقحم ، زائد ، حشو، صلة ويعنون بها الزيادة .

فكل هذه الألفاظ عفش ، يجب أن ينزه كلام الله تعالى منها و(مثل) من أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، فهو هنا يدخل فيه جميع أنواع المشابهة ، لأنه أراد العمل المذكور والذى يشبهه مما يوصل إلى نيل هذا النعيم .

ولو لم يذكر(مثل) وقال (لهذا فليعمل) لكان إشارة إلى العمل المذكور فحسب وفى هذا العمل الإنفاق ، ولا يستطيعه كل أحد ، فأشار إليه ، وهو في الموضع الواجب له ، وليس مقحما ولا زائدا .

---

(١) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص٩٤

ونظيره قوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ) (١) أى: كالذى ينعق .

ولكنه أتى بـ (مثل) ليشمل كل ناعق ، وليس ناعق الأنعام فحسب ، و(مثل) الأولى في الآية بمعنى : صفة .

وهذه الآية ، (لمثل هذا) (٢) يحتمل أن يكون من تتمه كلام القائل، ولا يفهم منه الدعوة إلى العمل في الآخرة ، إذ هى دار جزاء لا عمل فيها .

ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل .

وأما الآية بعدها (أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً) (٣) فهى من كلامه جل وعلا عند المحققين المحقين ، بدليل قوله بعد (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) (٤) وهو متعلق بقوله تعالى (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ) (٥) فالإشارة في قوله (أذلك) إلى الرزق المعلوم ، وقصة القرينين ذكرت بينهما عن طريق الاستطراد.

إيثار الإتيان بالمضارع في قوله (يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ)

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٧١
(٢) سورة الصافات ، آية : ٦١
(٣) سورة البقرة ، آية ٦٢
(٤) سورة الصافات ، آية : ٦٣
(٥) سورة البقرة ، آية ٤١

لبيان شدة استبعاد للبعث والنشور بعد الموت ، بتجدده لذلك في كل وقت ، فالتعبير بالمضارع هنا يفيد تجدد ذلك الاستبعاد والتكذيب منه ولذا ندر أن تجدى معه بعد نصيحة .

وإيثار (أذلك) بالبعيد مع الاستفهام الذي يفيد التوبيخ للمكذبين ، لبيان أن ذلك الجزاء للمؤمنين ، بعيد المنال ، بديع المثال ، وأنه ليسير على من أخلص دينه لله وأناب له الجناب .

وإيثار تشبيه طعام منكرى البعث ، برؤوس الشياطين ، لبيان تناهى الكراهة في قبح المنظر ، مع قبح الطعم والرائحة ، لأن العرب تشبه القبيح الذي تناهى قبحه بصورة الشيطان ، فيقولون : كأنه وجه شيطان ، وإن لم يروه،لما أنه مستقبح في طباعهم ، لاعتقادهم أنه شر محض ، لا يخلطه خير .

وهذا على عكس تشبيههم الصورة الحسنة بالملك ، لاعتقادهم أنه خير محض لا شر فيه ، وعليه قوله تعالى (ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) (١) .

فشبه المتخيل بصورة المحس ، لكى يذهب الذهن إلى أقبح صورة متخيلة لهذا الطعام ، من تلك الشجرة الملعونة ، ولما كان الشيطان لم ير أتى بكاف التشبيه للدلالة على عموم وشمول صور

---

(١) سورة يوسف ، آية ٣١

القبح عن طريق الشئ المتخيل ، فكان التشبيه هنا لأمرين .

الأول : تأكيد الصورة المستقبحة في النفوس عن الشيطان، وأنه من أقبح الصور على الإطلاق لأنه أس الشر وأصله .

الثانى : إبراز هذا الطعام المعد للمجرمين المنكرين بالبعث وتشبيه منظره بأقبح الصور، مما يستلزم قبح طعمه ورائحته، فاجتمع فيه قبح وشناعة المنظر والطعم والريح .

وهذا الطعام القبيح المعد لمنكرى البعث والجزاء نزلا لهم يوم القيامة في مقابلة ما أعد نزلا للمؤمنين بالبعث والجزاء ، المخلصين في عبادة ربهم ، من الفواكه والكرم الذي يعجز اللسان عن وصفه .

وكذلك الشراب فقد أعد للمتقين كأس من معين بيضاء لذة للشاربين ، وأعد للمجرمين المكذبين شراب من حميم ممزوج بالغساق والصديد ، جزاء وفاقا (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) (١).

وإيثار (لأكلون) على : يأكلون ، لإفادة المبالغة في الأكل من الشجرة ، وظاهر اللفظ يدل على شدة جوعهم ، وهذا ما يفيده وصف (آكل) ، فقد جاء بصيغة اسم الفاعل للدلالة على شرههم في الأكل من هذه الشجرة ضرورة ، ولجعل الشجرة محنة وعذابا للظالمين ، فرع عليها بالفاء فقال (فإنهم لأكلون منها) ، وأنث الضمير (منها)

---

(١) سورة الكهف ، آية ٤٩

ليعود على الشجرة التي يؤكل ثمرها المذكور قبل .

ومجئ (ثم) في الآية بعدها ، للتدليل على زيادة العذاب والنكال (ثم إن لهم عليها لشوبا) ، وجاء قوله تعالى (إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على أثارهم يهرعون بمثابة التعليل في بيان استحقاق هؤلاء المجرمين لما ذكر من فنون العذاب ، ولم يكن لديهم دليل على ما هم عليه من ضلال إلا تقليد الأباء في أصول الدين ، من غير أن يتدبروا أنهم على حق أولا ، مع كونهم على الباطل بأدنى تأمل .

وقوله (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) قد مر تفسيرها ، وليس هذا تكرارا ، إذ لم يقع في القرآن تكرار لمجرد التكرار ، ووقوع بعض الجمل و الآيات بعينها فى السورة أو السور ، إنما كان لمناسبة السياق والمقام ، فتكرارها بعينها لاحتياج المقام والسياق لها ، فهى بمثابة التأسيس وليس التأكيد فتكرار (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) في سورة الرحمن مثلا ، فلأنها جاءت بعيد كل نعمة أمتن الله بها على خلقه ، وكل نعمة تحتاج إلى هذا الجواب ، وكذلك قوله (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (١)جاءت مكررة وذلك عقب كل قصة ، واختلاف القصص، يقتضى ذكر هذا عقب كل واحد منها ، وليس في هذا تكرار لمجرد التكرار ، بل لاقتضاء مقام مضمون هذه الجملة .

---

(١) سورة القمر ، آية ١٧

وهكذا في كل مقام ذكرت فيه آية أو جملة بعينها ،قون مستقيم.

قد يقول قائل : ما هو وجه النعمة في قوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب به المجرمون) (يطوفون بينها وبين حميم أن) ، (فبأى ألاء ربكما تكذبان) .

والجواب : إن ذكر النعمة فيما هو وعيد شديد ، لتذكير الخلق وتخويفهم ، حتى لايقعوا في الأسباب الموصلة إلى الهلاك فيها .

المعنى :

ولمثل هذا الجزاء الذي أعد للمتقين المؤمنين والبعث والنشور بعد الموت، فليعمل العاملون فإنهم يغتنون به غنى لا فقر بعده .

ثم زاد أهل النار المنكرين للبعث تبكيتا وحسرة، بذكر أنواع العذاب، الذي يشتمل على صنوف الطعام والشراب وهو بمثابة النزل ، ويسمى بالضيافة الزقومية ثم بعد انتهائهم من تلك الضيافة يرجعون إلى أمهم، وهى أصل الجحيم ، وما كان هذا إلا بسبب ضلالهم في التقليد الأعمى للأباء الضالين المكذبين بالبعث والجزاء وقد كان لهم في عاقبة المكذبين من قبل عبرة وعظة ، فأنى يؤفكون .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- إن السبب الأساسى في نجاة العبد يوم القيامة العمل الصالح ،

الذيه هو مقتضى ما جاء به الدين .

٢- كل عمل ما ، له ما يقابله من الجزاء والكرامة ، فإذا كان العمل خيرا ، فجزاءه خير منه ، وإذا كان شرا فجزاءه أشر منه .

٣- التحذير الشديد بذكر بعض تفاصيل ما أعد للظالمين من نزل الشر، حتى يرتدع من كان في نفسه ريب ، وذلك رحمة من الله تعالى لعباده من أهل التذكير

٤- الإشارة إلى قيمة العقل والتفكر السليم في الأمور وعواقبها ، وأن التفكير الأعمى للأباء وغيرهم غايته البوار وبئس القرار .

٥- بيان عاقبة الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان ينجى صاحبه من عذاب أليم والإيمان نافع للعبد في الدنيا والآخرة .

قول الله تعالى ذكره :

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ

ذكر تفصيل بعض قصص المرسلين مع قومهم للعبرة والاتعاظ

ولما كان ما تقدم من ذكر وبيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم ،وهو متضمن لبيان سؤ العاقبة بعض النذرين ، ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى، أو أخلصوا له الدين ، على القراءتين المتقدمتين ،وكان ذلك عل سبيل الإجمال ، حسن أن اورد هنا تفصيل ما أجمله من قبل .

وقد بدأ بقصة نوح عليه السلام ، وتقديمه على سائر القصص ، لأنه أول رسول بعث إلى قومه منذرا إياهم من الشرك ، داعيا إياهم إلى التوحيد والطاعة الله تعالى (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) (١).

قوله (نادانا) أصل النداء من الندى ، أى : الرطوبة ، يقال : صوت

---

(١) سورة المؤمنون ، آية : ٢٣

نـدى رفيع واستعارة النداء للصوت من حيث أن من يكثر رطوبة فمه حسـن كلامـه ، فالـنداء هـو رفع الصوت وظهوره بالدعاء ، ومنه قوله تعـالى (وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ) (١) أى : دعوتم(٢) ، ولعل هذا النداء إشـارة إلى دعـاء نـوح عـليه السلام ربه حينما أيس فقال : مناديا (وَقَالَ نُـوحٌ رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) (٣) فالنداء يتضمن الدعـاء عـلى الكفـار من قومه ، وسؤاله النجاة وطلب النصرة ، وقوله بعد(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) يدل عليه .

وكـان دعـاء جميع الأنبياء ، وكذلك الخلق بـ (يارب)، ولم يكن بـلفظ الجلالـة (الله) المتضمن لجميع أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، لأن لفظ (الرب) فيه معنى الخلق والتربية والتدبير ، فلذا كان الدعاء به للمناسبة المعنوية والحالية .

ولـذا جاء عن نوح عليه السلام (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِـرِينَ دَيَّـاراً) (٤) وقولـه (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) (٥) وقول غيره (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) (٦).

(فلنعم) كلمة تستعمل في المدح ، ويقابلها (بئس) في الذم ،

---

(١) سورة المائدة ، آية : ٥٨ والمفردات للراغب ، ص٤٨٧
(٢) المفردات للراغب ، ص٤٨٧
(٣) سورة نوح ، آية ٢٦
(٤) تقدم ذكرها
(٥) سورة نوح ، آية ٢٨
(٦) سورة إبراهيم ، ، آية ٤١

قال الله تعالى (وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (١) والمخصوص بالمدح محذوف ، ففى الآية تقديره : فلنعم المجيبون - نحن .

(الكرب) هو الغم الشديد ، وأصله من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر ، فالغم يثير النفس إثارة ذلك .

قيل : ويصح أن يكون الكرب من كربت الشمس إذا دنت للمغيب، وقولهم : أناء كربان ، أى : قريب .

أو من الكرب ، وهو عقد غليظ في رشا الدلو ، وقد يوصف الغم بأنه عقدة على القلب(٢).

(الباقين) البقاء ثبات الئ على حاله ، وهو يضاد الفناء ، والباقى ضربان ، باق بنفسه لا إلى مدة ، وهو البارى تعالى ، ولا يصح عليه الفناء، وباق بغيره وهو ما عداه ، ويصح عليه الفناء(٣).

والمقصود بالبقاء ، هو عدم الفناء بالغرق الذي حل على قومه المكذبين.

وقد قيل : أنه قد مات كل من في السفينة ، ولم يعقبوا عقبا باقيا غير أبنائه الثلاث سام وحام ويافث وأزواجهم فإنهم بقوا متناثلين إلى يوم القيامة(٤).

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٣٦
(٢) المفردات للراغب ، ص: ٤٢٨
(٣) المفردات للراغب ، ص: ٣٤٤
(٤) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص٩٨

(سلام) من السلامة ، وهى التعرى من الأفات الظاهرة والباطنة، يقال : سلم يسلم سلامة وسلاما وسلمه الله قال الله تعالى (وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ) (١) والسلامة الحقيقية ليست إلا في الجنة ، فهى دار السلام المطلق إذ فيها بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر وعز بلا ذل ، وصحة بلا سقم ، قال الله تعالى (لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ) (٢) أى : السلامة .

والسلام اسم من أسمائه سبحانه ، إذ لا يلحقه سبحانه العيوب والنقص والآفات التى تلحق الخلق والمقصود إنهم يدعون لنوح عليه السلام بالخير،ويثنون عليه الثناء الحسن لما قام به من الدعوة إلى التوحيد ، فلا يذكره أحد بسؤ.

(الْعَالَمِينَ) جمع عالم ،جعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة ،والعالم ألة في الدلالة على صانعه ، ولذا كان من جملة الأدلة على وحدانيته (٣).

والمقصود من جمعه هذا الجمع ، لأنه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس ، دون غيرها وقد روى هذا عن ابن عباس ﷺ ، وقيل عنى به الناس ، وجعل كل واحد منهم عالما ، وعلى هذا يكون متعلقا بقوله (على نوح) (تجزى) الجزاء ما فيه الكفاية من

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٤٣
(٢) سورة الأنعام ، آية ١٢٧
(٣) المفردات للراغب ، ص٣٤٤

المقابلة ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر يقال : جزيته كذا وبكذا(١).

والمراد بالجزاء هنا ما ذكر له من الكرامات السنية التى وقعت جزاء له عليه السلام ، وذلك مقابل إحسانه في مجاهدة أعداء الله تعالى بالدعوة إلى دينه والصبر الطويل على أذاهم .

(أغرقنا) الغرق هو الرسوب في الماء وفى البلاء يقال : غرق فلان يغرق غرقا وأغرقه ، قال الله تعالى (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) (٢) ويقال : فلان غرق في نعمة فلان تشبيها بذلك(٣) .

و(الأخرين) جمع آخر ، بفتح الخاء ، وهو ما يقابل به الواحد ، كما أن الأخر بكسر الخاء ، ما يقابل به الأول (٤).

والمقصود هنا ، المغايرين لنوح عليه السلام وأهله الذين آمنوا ، وهم كفار قومه أجمعين .

فجعل نوح عليه السلام ومن آمن معه بمنزلة الواحد ، إذ الإيمان واحد لا يتجزأ ولا يتنوع ، فهو أصل واحد ، وجعل الكفار مغايرين وآخرين ، إذ الكفر شعب كثيرة ومتنوعة ، فكانوا أغيارا مقابل الإيمان الواحد .

وقرئ (سلاما) بالنصب على أنه مفعول به بـ (تركنا) ،

---

(١) نفس المصدر ، ص٩٣
(٢) سورة يونس ، آية ٩٠
(٣) المفردات للراغب ، ص٣٦٠
(٤) نفس المصدر ، ص :١٣

واللام في قوله (ولقد) واقعة في جواب قسم محذوف وكذا ما في قوله (فلنعم) .

والتقدير : وتا لله لقد دعانا نوح حين أيس من إيمان قومه ، بعد أن دعاهم أحقابا ودهورا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا ونفورا ، فأجبناه أحسن الإجابة ، فو الله لنعم المجيبون نحن .

و(سَلامٌ عَلَى نُوح) مبتدأ وخبر ، وفيه أوجه ، أحدها : أنه مفسر لـ(تركنا) والثانى : أنه مفسر لمفعوله أى : تركنا عليه ثناء ، وهو هذا الكلام .

وقيل : ثم قول مقدر ، أى : فقلنا سلام .

وقيل : ضمن معنى (تركنا) معنى قلنا ــ والكلام وارد على الحكاية .

وجاز الابتداء بالنكرة (سلام) لما فيه من معنى الدعاء ، و(في العالمين) متعلق بالظرف لنيابته عن عامله ، أو متعلق بما تعلق الظرف به ، وجوز بعضهم أن يكون حالا من الضمير المستتر فيه .

وقد زعم بعضهم أنه بدل من قوله (في الأخرين) ولا يكاد يصح.

وأيا ما كان فهو من تتمة الجملة السابقة .

و(ثُـمَّ) في قولـه (ثُـمَّ أَغْرَقْـنَا الْآخَرِينَ) للتراخى الذكرى ، لأن بقـاءه عـليه السـلام ومن معه متأخر عن الإغراق ، وإيثار الفاء في قوله (فلـنعم) عـن الواو ، لبيان أن الفاء فصيحة هنا إذ إنها أفصحت عن جمـل ذكـر مضـمونها في آيـات أخر ، وقد حذفت هنا للدلالة عليها في تلك المواضع المختلفة .

وفـى هـذا الأسلوب (فلنعم المجيبون) من تعظيم وفخامة أمر الإجابة ما فيه .

والإتيـان بـ (العالمين) بعد قوله (في الأخرين) لإزاحة توهم عـدم إفـادة الشمول من قوله (في الأخرين) إذ إن عمومه لا يغنى عن (العـالمين) ، ولإفـادة حصـول هذا السلام منهم في جميع الأمكنة ، وفى جميع الأزمنة ، ومن كل أحد ، الملائكة والثقلين .

وفى هذا الأسلوب من الاعتناء التام ، بشأن السلام بثبات هذه التحية واستمرارهـا أبدا في العالمين .

وقولـه (إِنَّـا كَذَلِـكَ نَجْـزِي الْمُحْسِنِينَ) تعليل من قبيل مجازاة الإحسـان ، فما وقع له من نجاة وسلام إحسان من الله له ، وذلك مقابل إحسـانه ، وهـو مجاهدتـه أعـداء الله تعـالى بـالدعوة إلى ديـنه ، والصبر الطويل على أذاهم .

وإيـثار الإشـارة بالـبعيد ، لبيان معنى البعد للإيذان بعلو رتبته

وبعد منزلته فى الفضل والشرف .

فكأنه قيل : مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الكاملين في الإحسان ، وإيثار وصف (الْمُحْسِنِينَ) على غيره لبيان أنه في أعلى مراتب الدين ، ولذا جوزى بأعلى وأكمل الكرامات .

وقوله (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) تعليل كونه محسنا ، لكونه من زمرة عباده الموصوفين بالإيمان إذ الإيمان أساس لكل خير يوجد ، ومركز لدائرته ، ومسك ختامه .

وإيثار وصفه بالعبد ، عن وصفه بالرسول أو النبى ، إذ منصبهما أعظم، وإن كان الرسول لا ينفك عن الخلوص بالعبودية ، وكمال الإيمان، لبيان أن مقصود ذكر العبودية هنا مدحها نفسها ، لا مدح موصوفها ،فالمقصود الوصف لا الموصوف .

والأسلوب فيه ما يدل على جلالة قدر كل من الإيمان والعبادة ما لا يخفى.

وقد خرج الحاكم وصححه ، بسند عن سمرة : أن النبى ﷺ قال : سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم(١).

وجمهور الناس على أن الناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها من ذرية نوح عليه السلام ، ولذا قيل له آدم الثانى ، فالناس

---

(١) خرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب التفسير / ٢ / ٥٤٦

جميعا من هذه الذرية المذكورة فى الحديث ، وذهبت فرقة من الناس ، إلى أن من الأمم من لا يرجع إلى نسل نوح عليه السلام .

وكأن هذه الفرقة لا تقول بعموم الغرق ، ونوح عليه السلام دعا على الكفار من قومه، وهولم يرسل إلى أهل الأرض كافة، إذ عموم البعثة كان ابتداء من خواص خاتم المرسلين ﷺ .

ويمكن أن يكون قول هذه الفرقة مرادا به العموم ، لكن جعلت الحصر بالنسبة إلى المغرقين ، وتلتزم القول بأنه لم يبق عقب لأحد من أهل السفينة هو من ذرية أحد من المغرقين .

والمعنى : وجعلنا ذريته هم الباقين لا ذرية أحد غيره من المغرقين وعندى أن كل قول من هذه الأقوال يشتمل الصواب إما عن طريق المنطوق أو عن طريق المفهوم ، والأمر في هذه المسئلة هين(١).

المعنى :

لقد نادى نوح ربه مسئلته ، وهو إهلاك قومه ، بعد أن ذكر أن دعاءه لم يزدهم إلا فرارا .

وكان الله له نعم المجيب وقت دعائه بإهلاك قومه إلا ما نجاه منهم معه فى السفينة ، وقد نجاه الله وإياهم من الغرق والطوفان والهم والغم العظيم .

---

(١) روح المعانى للألوسى / ٢٣ / ٩٨ بتصرف

وجعل الله سبحانه تعالى بعد غرق قومه ذريته الباقين ، وذلك لاستمرارية النسل وإظهار نعمته على نوح بإبقاء ذريته وترك له ذكرا جميلا يردده له من تأخر بعده من الناس يذكرونه به ، وسلاما عليه وأمنة من أن يذكره أحد بسؤ .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- التأكيد على استجابة دعاء عباد الله الصالحين ،وذلك نصر لهم على أعدائهم لأنهم قاموا بحق الدعوة إلى توحيده وعبادته .

٢- سنة الله ماضية في نجاة عباده المخلصين ، من كل هلاك وعذاب وقدر وقوعه على قوم ظالمين فإنه يهلك الظالمين وينجى المؤمنين .

٣- منة الله مستمرة لعباده الصالحين بعد موتهم ، وذلك بالثناء الجميل على ما قاموا به من عمل خير وهذا الثناء منه ، ومن عباده .

٤- ثناء الله ومدحه هو الزين حقيقة ، وذمه لبعض خلقه لسؤ أعمالهم،هو الشين حقيقة إذ هو المالك لأسباب ما هو زين ، وما هو شين .

قول الله تعالى ذكره :

وَإِنَّ مِـن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَـالَ لِأَبِيـهِ وَقَوْمِـهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِـي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَـرَاغَ عَـلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ

إقامة الحجج على إقرار المشركين بتفرد الله تعالى بالالوهية

ولما كان لإبراهيم عليه السلام من التجرد عن النعوت البشرية والعلائـق النفسـانية إلى الأحـوال المـلكية ، وكـان موافقـا لـنوح عليه السـلام في نسله كثرة وكان أشهر أمره في النار التى هى ضد أشهر أمر نـوح في المـاء، ولهـذا الـتوافق وغيره ذكر بعده ، وليؤكد إمامته وكرامته ومنزلـته العالية في الإمامة المقتضية للنشاط في الثناء عليه ، المنبهة على ما ينبغى من إتمام العزم في متابعته وتكذيبا لمن ادعى أنه ابتدع وخالف من كان قبله ، فهو خليل الله ومصطفاه ، وقد أمر الله جميع من جاء بعده مـن الرسـل باتـباعه لمجيـئة بالمـلة الحنيفية التى هى ملة الإسلام ، وهو الذي سمى من تبعها بالمسلمين .

(شـيعته) الشيعة من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه ، يقال : شـيعة وشـيع وأشـياع ، وشـيعت النار بالحطب قويتها ، وشاع القوم انتشروا وكثروا(١).

والمقصـود بالمشـايعة هنا المتابعة، والمعنى: وممن شايع نوحا عليه السـلام وتابعـه في أصـول الدين وإن اختلفت فروع شريعتهما أو ممن شايعه في التصلب في دين الله تعالى ومصابرة المكذبين .

وعـلى هـذا فالضـمير في قولـه (شيعته) يعود على نوح عليه السـلام وهو مروى عن ابن عباس ﷺ، وقـيل الضمير يعود على محمد ﷺ ، والظاهر الأول ، إذ ينذر أن يقال للمتقدم هو شيعة للمتأخر.

و(سـليم) مـن السـلامة ، وهـى الـتعرى مـن الأفات الظاهرة والأطـنة، يقال : سلم يسلم سلامة وسلاما(٢)، وسلمه الله والمقصود أن قلبه سالم من جميع الأفات، كفساد العقائد ، والنيات السيئة ، والصفات القبيحة ، كالحسد والغل وغير ذلك .

وقد تخصص بعضهم السلامة من الشرك ، والتعميم كما تقدم أولى وأحرى .

و(إفكـا) الإفـك كـل مصـروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عـليه، ومـنه قيـل لـلريح العدلـة عـن المهـاب مؤتفكـة ، وقوله (أنى

---

(١) المفردات للراغب ، ص٢٧٠، ٢٧١
(٢) المفردات للراغب ، ص٢٣٩

يؤفكون) (١) أى : يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في المقال إلى الكذب ، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح(٢) واستعمل الإفك في الكذب ، لما فيه من الصرف من وجه الى وجه أخر، وعندى : أن أصل هذه المادة هو الكذب، ويستلزم منه القلب والصرف فإن كان في المعانى ، فهو قلب للحقائق عن وجهها وصرفها إلى غير ما يجب أن تكون عليه ، وفى المحسوسات هو جعل ما يجب أن يكون أسفل أعلى ، كما قال تعالى (والمؤتفكة أهوى) (٣) وهى قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأن الله قلبها قلبا عندما عذبها ، فجعل عاليها سافلها ، فكانت قواعد البيت إلى أعلى، وسقفه إلى أسفل .

ومثال الأول في المعانى قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(٤)

و(دون) الدون هو القاصر عن الشئ ، أى : الذي لم يبلغ مبلغه ، ومنه قوله تعالى (لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ) أى : ممن لم يبلغ منزلته منكم في الديانة وقيل : في القرابة ، وقوله (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) أى : ما كان أقل من ذلك ، وقيل : ما سوى ذلك ،

---

(١) سورة الزخرف / ٨٧
(٢) نفس المصدر ، ص١٩
(٣) سورة النجم ، آية
(٤) سورة النور ، آية

والمعنيان يتلازمان ، وقوله (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (١) معناه : غير الله .

والمقصود هنا : أتريدون ألهة غير الله الموصوف بأنه رب العالمين.

(ظنكم) الظن في الأصل يرجع إلى أحد احتمالين في الشئ أحدهما راجح والثانى مرجوح ، مع إرادة الراجح ، إذ المرجوح وهم ، وإذا تساوا أصبح شكا

وقد يرد الظن لمعان أخر بمعونة أدوات أخرى ، فقد يرد بمعنى اليقين ، وذلك إذا ورد عليه (إن) المكسورة المشددة كما في قوله تعالى (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ) (٢).

ويرد للشك ، فيقل احتمال اليقين فيه ، إن كان عليه وعيد ودخول(أن) المخففه كما في قوله تعالى (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُور) (٣).

ويرد بمعنى الكذب ، وذلك إن زادت البراهين على عدم صدق الظن ، كما في قوله تعالى (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (٤) .

(فنظر) النظر يطلق ويراد به ، تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشئ ورؤيته وقد يراد التأمل والفحص ، يقال : نظرت فلم

---

(١) سورة المائدة/ ١١٦
(٢) سورة الحاقة ، ، آية :
(٣) سورة الانشقاق ، آية :
(٤) سورة البقرة ، آية :

تـنظر ، أى : لم تـتأمل ، ومـنه قوله تعالى(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْـأَرْضِ) (١) أى : تأمـلوا ، وقوـله (أَوَلَـمْ يَـنْظُرُوا فِـي مَـلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (٢) يحثهم على تأمل حكمته في خلقها (٣).

والمقصـود هـنا ، نوع من التأمل في أحوال النجوم ، واللائق به عـليه السـلام في هذا التأمل ، أن يكون على طريقة الكاملين ، في خلق السـموات والأرض وتفكـرهم في ذلـك ، ولكـن فيـه إيهام لهم ، أنه تفكـر في أحوالهـا من الاتصال والتقابل ، وغير ذلك من الأوضاع التى تـدل بزعمهم على الحوادث ليرتب عليه ما يتوصل به إلى غرضه الذي سـيكون وسـيلة إلى إنقـاذهم ممـا هم فيه من ضلال (سقيم) السقم ، بفـتح السين والقاف ، أو بضم السين وسكون القاف المرض المختص بالبدن(٤)، إذ المرض قد يكون في البدن وفى النفس ، كما في قوله (فِي قُـلُوبِهِمْ مَرَض) (٥) ، والمقصود بالسقم هنا سقم البدن ، وذلك بوجود علة أختل بها مزاجه .

(مدبـرين) دبـر الشـئ خـلاف القبل ، يقال : دبر بضم الدال وسكون الباء ، أو بضمها ، وجمعه أدبار(٦).

---

(١) سورة يونس ، آية : ١٠١
(٢) سورة الإعراف ، آية ١٨٥
(٣) المفردات للراغب ، ص٤٩٧
(٤) المفردات للراغب ، ص٢٣٥
(٥) سورة البقرة ، آية :١٠
(٦) المفردات للراغب ، ص١٦٤

ويقصد به هنا الإعراض والنظر في أخر الأمور ، لا في أولها حتى يدرك من تأمل أولها ، إدراك عواقبها .

(فراغ) الروغ الميل على سبيل الاحتيال ، ومنه راغ الثعلب يروغ روغانا.

وراوغ فلان فلانا ، وراغ فلان إلى فلان ، مال نحوه لأمر يريده منه بالاحتيال(١) والمقصود من هذا الأصل في معنى الروغان ، إنه ذهب إليها في خفية لينال منها غرضه ، فهى حيلة مشروعة للوصول إلى غاية حسنة، ولذا جاء إسناد الفعل هنا بـ (إلى) ، وذكر بعد (فراغ عليهم) فأتى بـ (على) لبيان الاستعلاء أى : فمال مستعليا عليهم .

(باليمين) اليمين أصله الجارحة ، ويستعمل في الحلف باعتبار ما يفعله المعاهد والمحالف وغيره(٢) في جعل يمينه بيمين الشخص الذي عاهده أو حلف له ، وتلك كانت عادتهم في الحلف .

والمراد بـ (اليمين) هنا اليد اليمين ، إذ تقييد الضرب بها لبيان كمال القوة والشدة في الضرب بها لأنها أقوى الجارحتين ، وأشدهما في الغالب ، وقوة الألة تقتضى شدة الفعل وقوته (٣).

(يزفون) الزف، من زف الإبل أسرع بها سائقها وأصل

---

(١) نفس المصدر ، ص٢٠٨

(٢) المفردات للراغب ، ص٥٥٢، ٥٥٣

(٣) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص١٢٣

الـزفيف هـو هـبوب الريح وسرعة النعام التى تخلط الطيران بالمشى ، وزفزف النعام أسرع (١).

والمـراد مـن الـزف هـنا ، إتيـانهم إيـاه عـلى حالة بين الجرى والمشـى ، وفـى هـذا الوصـف بيـان لحـال تسـرعهم ، في معـرفة حـال أصنامهم .

(تنحـتون) الـنحت يكـون في الخشـب والحجـر ونحوهما من الأجسام الصلبة والنحاتة ما يسقط من المنحوت والمراد ما ينحتونه من الأصنام.

وقـرأ الإمـام حمـزة من السبعة (يزفون) بضم الياء من : أزف بعـيره ، أى حملـه(٢) عـلى الـزفيف ، وهـو الإسراع ، وقرئ (يزفون) بفتح الياء ، وبضم الفاء مخففة من : وزف يزف أى : أسرع .

وقـرئ (يزفون) بضم الياء ، وفتح الزاى ، وضم الفاء مثقلة ، مبنيا للمفعول .

وقرئ (يزفون) بفتح الياء ، وسكون الزاى ، وضم الفاء مخففة كـ (يـرمون) مـن : زفـاه ، بمعـنى حـداه ، كـأن بعضـهم يـزفو بعضا لتسارعهم إليه(٣).

---

(١) المفردات للراغب ، ص٢١٣

(٢) الدر المصون للسمين ج٩، ص٣٢٠

(٣) الدر المصون للسمين ، ج٩، ص٣٢١

و (إذ) الأصل فيها للزمان الماضى ، واشترط أن تكون ظرفا أو مضافا إليها الظرف مثل قوله تعالى (وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ) (١) وقد تخرج عن الماضى إلى الحاضر كما في قوله (وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) (٢) وقد تخرج إلى الاستقبل كما في قوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ) (٣) والتعبير عنه بالماضى لتأكيد وقوعه .

والعامل فيه وجهان، أحدهما : اذكر مقدرا، وهو الغالب عند المفسرين والمعربين أى : أذكر وقت جاء ربه .....

والثانى : ما في الشيعة من معنى المشايعة ، والتقدير : وإن ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه (٤).

ورد هذا الثانى ، لأنه أجنبى من شيعته ومن (إذ) ، وأيضا فلام الابتداء تمنع أن يعمل ما قبلها فيما بعدها(٥)، إذ أنهم لا يجوزون ذلك للصدارة ، وكذا يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبى وهو لا يجوز .

وقيل:لا مانع من كل، إذا كان المعمول ظرفا لتوسعهم فيه(٦).

---

(١) سورة الواقعة ، آية
(٢) سورة يونس ، آية
(٣) سورة الزخرف ، آية
(٤) نفس المصدر ج٩، ص٣١٨
(٥) روح المعانى للألوسى م٨، ج٢٣، ص١٠٠
(٦) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص١٠٠

وقيل : لا مانع من تعلقه بفعل مقدر يدل عليه قوله تعالى (وإن من شيعته) والتقدير : كأنه قيل : متى شايعه ؟

فقيل : شايعه إذ جاء ربه(١)، وهو يشير بهذا إلى ربط المشايعة بالمجيء ، وكان المشايعة وقعت وقت مجيئه ربه .

والأمر كما قيل: فيه متسع ، وهذا الوجه الأخير لا يرد عليه شيء

و (إذ قال) قيل : بدل من (إذ) الأولى ، وقيل : ظرف .

(سليم) والتقدير : سلم عليه في وقت قوله كيت وكيت ، وقيل : ظرف (جاء) .

قال السمين الحلبي: وليس بواضح(٢) ، يريد أن هذا الوجه ليس بواضح التعلق بـ (جاء) ، إذ سيكون تقدير المعنى أن القلب السليم لم يكن إلا وقت مجيئه ربه ومفهومه أنه قبل ذلك الوقت لم يكن سليما ومن هنا كان هذا الوجه غير واضح ويمكن أن يكون متعلقا بفعل محذوف مثل سابقه بـ (اذكر) كما هى العادة .

و(أئفكا) يمكن أن يكون مفعولا لأجله ، والتقدير : أتريدون ألهة من دون الله تعالى إفكا ، أى : من أجل الإفك ، أو للإفك و(ألهة)

---

(١) نفس المصدر ، م٨، ج٢٣، ص١٠٠

(٢) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص ٣١٩

مفعول به ل(تريدون) .

وقيل : مفعول به بـ (تريدون) ويكون (ألهة) بدلا منه بدل كل(١)، وجعلت عين الإفك على سبيل المبالغة ، أو الكلام على تقدير مضاف ، أى عبادة ألهة ، وهى صرف للعبادة عن وجهها .

وقيل يمكن أن يكون حالا من ضمير (تريدون) أى أفاكين(٢)، والتقدير : أتريدون ألهة غير الله تعالى حالة كونكم أفاكين في هذا الذي تريدون .

ورده أبو حيان معللا ذلك بقوله وجعل المصدر حالا لايطرد إلا مع (أما) نحو : أما علما فعالم (٣).

وكونه لا يطرد ، مفهومه ، أنه قد يرد ، وهو لازم هنا من حالهم إذ تلك الألهة المتخذة من دون الله لا دليل لديهم على إستحقاقهم ذلك ، بل الدليل الحسى والمعنوى قائم على بطلانها فهم أفاكون إيقاعهم ما يجب لله من عبادة لغيره، مع علمهم بإستحقاقها لله تعالى ، إذ غيره مخلوق .

وأولى الوجوه بالقبول ، كونه مفعولا لأجله ، إذ الأهم هنا بيان مكافحتهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم ، بل إن مبنى أمرهم

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣١٩

(٢) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص١٠١

(٣) البحر المحيط لأبى حيان / ٧ / ٢٥٦

على الإفك ، ولذا قدمه على المفعول (ألهة) .

و(ألهة) مفعول به لـ(تريدون) وقدم عليه ، لأن الأهم أن يقرر ويؤكد أنهم على الباطل ، وأن أمرهم هذا مبنى على الإفك ، ولذا قدمه على المفعول (ألهة) .

وهذا أولى من أن يقال : قدم للفاصلة ، إذ التقديم لمجرد توافق الفواصل ، ليس من عادة النظم القرآنى .

لأن هذا سبيله الإ هتمام باللفظ دون المعنى والقول الحق ، أن المعانى مقدمة على الألفاظ .

والأصل إيصال المعنى المراد ، لا مجرد ترتيب الألفاظ ، إذ مجرد ترتيب الألفاظ فيه تكلف ، والقرآن منفى عنه التكلف .

فالنظم القرآنى يهتم بإيصال المعانى إلى السامع بوضوح وبيان ، إذ هى المقصود بالإحكام ، وهو مع هذا لا يهمل جانب الألفاظ ، بل يورد اللفظ في موضعه الذي لا يصلح فيه غيره .

وقد توافق بهذا بين المعنى واللفظ علىأجمل نسق وأتم بيان، وهذا الوصف خاص بالقرآن ، وليس في قدرة أحد من الخلق ، أو جميعهم أن يصل إلى شىء من هذا التوافق البتة، وهذا في رأى عين الإعجاز، لأنه جمع بين الإهتمام بالمعنى الذى يترتب عليه الأحكام وتوافق اللفظ في الجمل والفواصل .

و (ضـربا) مصـدر واقـع موقع الحال ، والتقدير : فراغ عليهم ضاربا باليمين .

ويجـوز أن يكـون مصـدر لفعـل ، ذلـك الفعل حال ، وتقديره : فراغ يضرب ضربا باليمين ، إذ المراد منه ضربهم ، وقيل : ضمن (راغ) معنى يضرب ، وهو بعيد(١).

وقيل : هو مفعول لأجله ، أى لأجل الضرب (٢).

و(يزفون) حال من فاعل (اقبلوا) ، والتقدير : إنهم لما سمعوا بذلـك(٣)، أى : بـتحطم الأصنام بادروا مسرعين إذ (يزفون) معناه : جاءوا مسرعين ، لأنه من زف بمعنى أسرع .

و (اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الجملة في موضع الحال من ضمير (تعـبدون) وذلك لتأكيد الإنكار، وفيه معنى التوبيخ ، والاحتجاج على أنـه لا ينـبغى أن تكـون تـلك العـبادة لهـذه الأصـنام الـتى يصنعوها بأيديهم(٤).

و (ما) فيها أوجه :

أولهـا : أنهـا موصـولة بمعـنى الـذي ، والـتقدير: وخـلق الذي تصنعونه ، والعمل هنا هو التصوير والنحت ، والمعنى: أتعبدون الذي

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩، ص٣٢٠
(٢) روح المعانى للألوسى، م٨، ج٢٣، ص١٢٣
(٣) الدر المصون ، ج٩، ص٣٢
(٤) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص١٢٤

تنحتون ، والله خلقكم ، وخلق ذلك الذي تعملونه بالنحت .

ثانيها: أنها مصدرية ، والتقدير : خلقكم وأعمالكم ، قالوا : وكونها لإفادتها أن الله خالق الأشياء كلها بدليل قوله تعالى (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) (١) ، والقراء مجمعون هنا على الإضافة (٢).

ثالثها: أنها إستفهامية ، وهو استفهام توبيخ وتحقير لشأنها ، والتقدير : أى شئ تعملون(٣).

والمعنى : الحال والشأن لديكم ولدى غيركم من جميع الخلق ، أن الله هو خالق لكم ، فأى شئ تعملون بعد إقراركم بأنه خالقكم ، وهو مستلزم لعبادته وحده أليس الذي تعملون له من دون الله حقير الشان فأى شئ تعملون ، إذ لا عمل لكم يعتبر.

رابعها: أنها نافية ، والتقدير : أن العمل في الحقيقة ليس لكم فأنتم لا تعملون شيئا .

والمعنى : أتعبدون الأصنام على حالة تنافى ذلك ، وهى أن الله خالقكم وخالقهم جميعا .

وقيل : يجوز أن تكون مستأنفة (٤).

---

(١) سورة الفلق ، آية :٢
(٢) الدر المصون للسمين ، ج٨، ص٣٢١
(٣) نفس المصدر ، ج٨، ص٣٢٢
(٤) نفس المصدر ، ج٨، ص٣٢٢

والأولى بالقبول من هذه الوجوه ، وأجودها وأعمها وأشملها كون (ما) بمعنى الذي ، إذ قد تقدم عليه ما يدل على تأكيد موصوليتها ، فقد جاء قبلها (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) (١).

والمعنى : أتعبدون الذي تنحتونه ، والله خلقكم ، وخلق الذي تعملونه من نحت .

فالذى قبلها موصولة ، وكذلك هنا ، لأن لا ينفك النظم القرآنى عن توافق المعانى ولأن الذي تشتمل الفعل والمفعول معا ، وذلك على سبيل التنصيص ، بخلاف المصدرية ، فإنها تدل على الفعل تنصيصا ، والمفعول استلزاما.

ولأن (ما) التى بمعنى الذي تطلق على الذوات والصفات ، والعقلاء وغير العقلاء فهى عامة شاملة معنى ، كما أنها موغلة في الإبهام لشمول ما لا يمكن دركه .

والحمل على الأعم أولى وأحرى ، من الحمل على الأخص وهذا المدلول إما يمكن أن يكون شاملا للشكل والصورة التى صار عليها الصنم الذي يعبدونه إن كان من فعلهم، إذ هو سبحانه الذي أقدرهم على تشكيله وتصويره فالأشكال والتصاوير خلقها الله تعالى بهم ، وهذا المعنى نظيره قوله تعالى (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ

---

(١) سورة الصافات ، آية

مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(١) .

ومناط التكليف متعلق بهذه القدرة التى منحها الله تعالى لجميع خلقه ، وعليها حاسبون ، بما يوجهون بها من أفعال، ولذا أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب لتوجيه تلك القدرة التى أعطيت للخلق ، على ما أراده الله شرعا .

وقد تتخلف هذه القدرة كونا ، وذلك بمخالفة بعض الخلق لهدى الله تعالى شرعا ولكنهم لا يخرجون جميعا محسنهم ومسيئهم عن القدرة الكونية .

وإيثار(إذ جاء ربه) عن أتى ، لأن المجئ أعم من الإتيان ، إذ المجئ فيه اعتبار الحصول ، والإتيان فيه اعتبار القصد وإن لم يكن منه حصول (٢).

والمجئ يقال في الأعيان والمعانى ، ولما يكون بالذات والأمر، ولمن قصد مكانا أو زمانا أو عملا فمن الأول قوله تعالى (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ)(٣).

والمقصود بمجئ إبراهيم عليه السلام ربه ، حصول الإخلاص الكامل منه لله والتوجه إليه وحده بالعبادة ، وأن هذا حاصل قبل ذلك

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٢
(٢) المفردات للراغب ، ص١٠٣
(٣) سورة الأحزاب ، آية : ١٩

منه ، وليس زمن الإخبار بمجيئه ، ولذا أثر أن قال (بقلب سليم) دون (سليم القلب) .

ولأن لا يتوهم أن هذا من باب الحال المتنقلة ، بل هى حال له ثابتة له قبل المجئ ومجئ النظم بهذه الصورةلإفادة هذا المعنى الدال على شموليته الإخلاص ظاهرا وباطنا وبأن هذا قد حصل منه من قبل ، والمعنى : اذكر وقت جاء إبراهيم ربه حالة كون قلبه سالما من كل شائبة شرك ، فقد جاء خالصا مخلصا لله تعالى .

ولذا آثر لفظ (سليم) ليشمل كل سلامة لهذا القلب ذاتا وصفة .

وجئ بالاستفهام المفيد للتوبيخ والتقريع ، مصاحبا للمفعول له (أئفكا) مع تقديمه ولم يكن في المفعول (ألهة) أو الفعل (تريدون) إذ الأصل : أتريدون ألهة دون الله إفكا أى : للإفك .

لبيان أن مبنى أمرهم على الإفك والباطل ، ولأن المقصود ذكر ما هم عليه من شرك ، وأنه باطل يلزم مكافحته ودفعه .

وإذا كان هذا لبيان بطلان أصل ما هم عليه ،ووجوب دفعه وإزاحته لكذبه ، عاد ذلك كذلك إلى الفاعل والمفعول ، (تريدون) و (ألهة) ، إذ لو دخل عليهما الاستفهام ، ما أفاد ذلك ، وهذا وجه التمكن والجمال في هذا التركيب .

وإيثار التعدية بـ (على) في (راغ) الثانى لما كان مع الضرب المستولى عليهم من فوقهم إلى أسفلهم ، بخلاف الأولى الذي عدى بـ (إلى) فإنه توبيخ لهم .

وإيثاره ضمير العقلاء في قوله (عليهم) جريا على ظن عبدتها أنها كالعقلاء .

المعنى :

يخبر الله سبحانه أن ممن ناصر وتابع نوح عليه السلام في التصلب في أصول الدين إذ دعوة الأنبياء واحدة في الأصول ، وإن اختلفت الفروع ، خليله إبراهيم عليه السلام وتلك المتابعة وقت مجيئه ربه بقلب سالم من كل أفات الشرك وحينما وبخ قومه لعبادتهم غير الله ، وقد أقام عليهم الحجج والبراهين بفساد وبطلان ما يعبدون ، وأن الذي يجب أن تكون له العبادة وحده هو خالقهم وخالق ما يعبدونه من الألهة،والمخلوق لا يكون إلها فالذى يصنعونه من الأصنام مخلوق، فكيف يصح عبادته ؟

وهذا يدل على أن أى شئ يصنعه الإنسان مما خلق الله ،لا يخرج عن كونه مخلوقا فلا يجوز أن يعبد أو يقدس أويتقرب به إلى الله، إذ كل هذا شرك يتنافى مع التوحيد الخالص الذي جاء به إبراهيم عليه السلام ،وقد سيقت القصة لبيان وجوب الاقتداء به .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- وجوب الإخلاص التام في عبادة الله تعالى ، وأنه أصل أصول الدين الذي لا تتم العبادة إلا به .

٢- دين جميع الأنبياء واحد في هذا الأصل ،وهو إخلاص العبادة كلها لله تعالى لأنه هو المستحق للعبادة ، وإن اختلفت شرائعهم، ولذا قال تعالى(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية ، فجميع الأنبياء والمرسلين جاؤا لإقامة هذا الأصل .

٣- مجادلة الخصوم بما يعتقدون وما يحسنون من مصطلحاتهم ، لأن هذا أدعى لقبولهم الحجة والبرهان ، ومخاطبة أهل الصطلاح باصطلاحهم جائز .

٤- إثبات خلق أفعال العباد، وأن الله تعالى هو الذي خلقهم ، وخلق أفعالهم ، وأن خلق الأفعال لا يتنافى مع إثبات نسبة الفعل إلى فاعله ، ولذا وقع التكليف ، ونيط به الثواب والعقاب .

قول الله تعالى ذكره :

قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ

إنجاء الله لعباده المخلصين ، وتفضله عليهم

ولما كان السامع يعلم أنهم - أى المشركون - لا بد وأن لا يجيبوا بشىء ، لكمال الحجج والبراهين التى أقامها وذكرها إبراهيم

عـليه السـلام ، في إلـزامهم بالإقـــرار بتوحيد الله تعالى ، وقد تشوف لسماع ذلك أيا ما كان ، أجيب بذكر جوابهم الخالى من أى دليل عقلى أو نقـلى ، على ما هم عليه من شرك بل زادوا في ذلك ، ببيـان ضعف عقولهم برد الأدلة والحجج بسؤ الطغيان ، ولغة النيران .

و (ابـنوا) يقـال : بنيت أبنى بناء و بنية وبنيا ، والبناء : أسم لما يبنى ، والبنيان واحد لا جمع .

وقـال بعضـهم : بنيان جمع بنيانة ، فهو مثل : شعير وشعيرة ، وتمـر وتمـرة ونخـل ونخـلة ، وهـذا الـنحو مـن الجمـع يصـح تذكـيره وتأنيثه(١).

(فألقوه) من الإلقاء، وهو طرح الشئ حيث تلقاه أى : تراه ، ثم صـار في الـتعارف اسمـا لكـل طـرح قـال الله تعـالى (فَكَذَٰلِـكَ أَلْقَى السَّـامِرِيُّ) (٢) ، وقولة (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ) (٣) وقوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَـا فَوْجٌ) (٤) وأما قوله (أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (٥) فعبارة عن الإصغاء إليه ، وفيه معنى الطرح (٦).

(كيـدا) الكيـد ضرب من الاحتيال ، أكثر ما يستعمل في الذم

---

(١) المفردات للراغب ، ص٦٢
(٢) سورة طه ، آية : ٣٩
(٣) سورة طه ، آية : ٨٧
(٤) سورة الملك ، آية : ٨
(٥) سورة ق ، آية : ٣٧
(٦) المفردات للراغب ، ص٤٥٣، ٤٥٤

وقـد يكـون ممدوحا مثل قوله (كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) (١)، قوله (فارادوا به كيدا) أى : سؤا .

(الأسـلفين) السـفل ضـد العلو، وسفل فهو سافل ، وأسفل ضد أعلى ، والسفلة من الناس النذل ، نحو الدون(٢) .

(هـب) يقـال : وهبـته هـبة وموهبة وموهبا ، والهبة : أن تجعل ملكك لغـيرك بغـير عوض ، قال الله تعالى (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) (٣) .

(بـلغ) البـلوغ والـبلاغ الانـتهاء إلى أقصـى المقصد والمنتهى مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة .

وربما يعبر به عن المشارفة عليه ، وإن لم ينته إليه فمن الانتهاء قولـه (حَتَّى إِذَا بَـلَغَ أَشُـدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) (٤) ومن المشارفة عليه قولـه(فَـإِذَا بَـلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) (٥) ومعناه هنا أقصى الأجل .

(الصـابرين) الصـبر: حـبس الـنفس عـلى مـا يقتضيه العقل والشـرع أو عمـا يقتضيان حبسها عنه وهو لفظ عام ، وله أنواع كثيرة

---

(١) سورة يوسف ، آية :٧٦
(٢) المفردات للراغب ، ص٢٣٤
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٧٤
(٤) سورة الأحقاف ، آية : ١٥
(٥) سورة الطلاق ، آية :٢

بحسب اختلاف مواقعه ، فإن كان في مصيبة سمى صبرا، وإن كان في محاربة سمى شجاعة ، وإن كان في نائبة سمى رحب الصدر(١).

فقوله (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) على قضاء الله تعالى ذبحا كان أو غيره .

(أسلما) الإسلام الدخول في السلم ، وهو أن يسلم كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه (٢).

والمقصود هنا الاستسلام لله في جميع ما قضى وقدر،ومنه قوله تعالى(إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لله رب العالمين) (٣) فكل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، قد استسلما وانقادا لأمر الله تعالى ، والفعل بهذا المعنى لازم ، وأسلم الذبيح نفسه على أنه متعد .

(وتله) من التل وهو المكان المرتفع ، و(وتله للجبين) أسقطه على التل كقولهم: تربه(٤) ، أسقطه على التراب فهو أسقطه على التل وهو المكان المرتفع عن الأرض وبه تراب مجتمع ، وقد صرعه عليه ، واقعا على جبينه أو من التليل ، وهوالعنق أى : رماه على عنقه ثم قيل لكل إسقاط و إن لم يكن على تل ولا عنق(٥).

---

(١) المفردات للراغب بتصرف ٢٧٣

(٢) نفس المصدر ، ص٢٤٠

(٣) سورة البقرة ، آية : ١٣١

(٤) المفردات للراغب ، ص٧٥

(٥) الفتوحات الإلهية للجمل ، م٣، ص٥٤٧

(البلاء) يقال : أبليت فلانا إذا أختبرته ، وسمى الغم بلاء من حيث أنه يبلى الجسم ومنه قوله تعالى (وفى ذلك بلاء من ربكم عظيم) وسمى التكليف بلاء ، لأن فيه مشقة على البدن ، فهو من هذا الوجه بلاء، ولأن التكليف إختبار من الله لعباده وهو من هذا الوجه بلاء (١).

فأمر الله إبراهيم عليه السلام بذبح إبنه تكليف ، وهو عين البلاء والإختبار ، وإن لم يكن قد وقع لكن لما استسلم كل منهما لأمر الله تعالى وتكليفه ، فدى إبنه بذبح عظيم ، ولذا وصف البلاء بأنه (مبين) فهو الإمتحان والإختبار البين الذي يتميز فيه المخلص من غيره ، والله سبحانه أن يبتلى من شاء بما شاء ، وهو سبحانه الحكيم الفعال لما يريد.

(للجبين) الجبين : ما أكتنف الجبهة من هنا ومن هنا ، إذ لكل إنسان جبينان ويجمع قياسا جمع قلة على : أجبنة ، وفى الكثرة : جبنى وجبنان (٢).

والرؤية إدراك المرئى ، بحسب قوى النفس .

(وفديناه) الفدى والفداء : حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله

---

(١) المفردات للراغب ، ص٦١

(٢) الدر المصون ، ج٩، ص٣٢٤

عنه ، يقال : فديته بمال ، وفديته بنفسى (١).

والفدية هى بدل مال يخرج المسلم بسبب عبادة قصر فيها، ككفارة اليمين، وكفارة الصوم ، ونحو ذلك .

ولذا وصف الفداء هنا بـ (عظيم) وذلك لعظم جثته ، فهو سمين أو عظيم القدر أو لأنه رعى في الجنة ، أو لأنه متقبل يقينا .

وأصل الذبح بفتح الذال شق حلق الحيوان ، والذبح بالكسر المذبوح .

(وبشرناه) أبشر يكون لازما ومتعديا ، يقال : بشرته فأبشر ، أى : استبشر وأبشرته ، وبشرته بتشديد الشين على التكثير (٢).

والبشارة والبشرى تقال للخبر السار .

(وباركنا) البركة ثبوت الخير الإلهى في الشئ ، سمى بذلك ثبوتا ، كثبوت الماء في البركة(٣)، والمبارك ما فيه ذلك الخير، ومنه قوله تعالى (وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاه) (٤) تنبيها على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهية .

وقرئ (يابنى) بفتح الياء وكسرها(٥) .

---

(١) المفردات للراغب ، ص٦١
(٢) نفس المصدر ، ص٤٨
(٣) نفس المصدر ، ص٤٤
(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٥٠
(٥) والقراءتان سبعيتان ، انظر الفتوحات الإلهية للجمل م٣، ص٥٤٦

وقرأ الإمامان حمزة والكسائى قوله (ماذا ترى) بضم التاء وكسر الراء خالصة والمعنى : ما الذي ترينى إياه من الصبر وغيره أو أى شئ ترينى.

وقرئ بضم التاء وفتح الراء ،مبنيا للمفعول ، والمعنى ماذا تريك نفسك من الرأى أو ما يخيل إليك ويسنح خاطرك(١).

وقرئ (يا أبت) بفتح التاء وكسرها(٢)، والتاء عوض عن ياء الإضافة، ولذا أعطيت حكم المعوض عنه ، وهو محل الجر .

وقرئ (أسلما) بـ (سلما) بتشديد اللام مفتوحة ، ويجوز في معناها،أى : فوضنا إليه تعالى في قضاءه وقدره وهى من معنى ما سبق.

وقرئ (استسلما) وأصل الأفعال الثلاثة سلما هذا لفلان إذا خلص له ، فإنه سلم من أن ينازع فيه(٣) .

وقرئ (قد صدقت) بتخفيف الدال(٤)، والتشديد أبلغ وتصديقه عليه السلام الرؤيا توفيته حقها من العمل ، وبذل وسعه في إيقاعها ، ولا يلزم فيه وقوع ما رأه بعينه وقوله (فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ) قد سد مسد معمولى (أرى) وكأنه قال : رأيت في المنام أنى أذبحك .

---

(١) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص١٢٩

(٢) والقراءتان سبعتان ، الفتوحات الإلهية للجمل ، م٣، ص٥٤٧

(٣) روح المعانى للألوسى ، م٨، ج٢٣، ص١٣٠

(٤) نفس المصدر ، م٨ ، ج٢٣، ص١٣٠

و (مـاذا) يجـوز أن تكـون مركـبة مغلبا فيها الاستفهام فتكون منصـوبة بـ (تـرى) وما بعد ما في محل نصب بـ (انظر)، ويمكن أن تكـون (مـا) اسـتفهامية ، و(ذا) موصـولة فـتكون : مـاذا ، مبتدأ وخبر والجملة معلقة كذلك .

ويمكـن أن تكـون (مـاذا) بمعـنى الـذي فـتكون معمـولا لـ (انظر)(١).

و (مـا) في قولـه (مـا تؤمـر) يجـوز أن تكـون بمعـنى الـذي ، والعـائد مقدر، أى : تؤمره ، والأصل تؤمر به ، ولكن حذف الجار مطرد فلم يحذف العائد إلا وهو منصوب المحل ، فليس حذفه هـنا كحذفه في قولك : جاء الذي مررت .

ويمكـن أن تكـون مصـدرية ، أى : أمـرك ،عـلى إضـافة المصدر للمفعول ، وكونها موصولة أسـد لمعنى السياق (٢).

و (فلما) في جوابها ثلاثة أوجه :

أحداهـا : وهـو الظاهـر ـ أنه محذوف ، أى : نادته الملائكة ، أو ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما .

الـثانى : أنـه (وتلـه للجـبين) والـواو زائـدة ، وهـو قـول

---

(١) الفتوحات الإلهية ، م٣، ص٥٤٦

(٢) نفس المصدر ، م٣، ص٥٤٧

الكوفيين .

الثالث : أنه (وناديناه) والواو زائدة أيضا(١).

وقوله (وفديناه) معطوف على (ناديناه) وهو المأمور بذبحه ، إسماعيل أو إسحاق عليهما السلام ، خلاف بين العلماء .

و (نبيا) نصب على الحال ، وهى حال مقدرة ، بشرط تقدير مضاف محذوف وكأنه قال : وبشرناه بوجود إسحاق نبيا ، أى : بأن يوجد مقدرة نبوته ، فالعامل في الحال الوجود ، لا فعل البشارة (٢).

و (من الصالحين) يجوز أن تكون صفة لـ (نبيا) وأن يكون حالا من الضمير في (نبيا) فتكون حالا متداخلة ويجوز أن يكون حالا ثانية(٣)، وتعدد الأحوال والصفات والأخبار جائز .

وورودها كان على سبيل الثناء والتقريظ،لأن كل نبىلا بد أن يكون من الصالحينو (ومن ذريتهما) خبر مقدم ، ومحسن مبتدأ مؤخر ، ووجه التقديم هنا للإشارة إلى نعمة أخرى ، تنضاف إلى النعم السابقة ، وهى أن أكثر الأنبياء كانوا من ذريتهما .

و إيثار التعبير بقوله (إلى ربى) لبيان إظهار اليأس من إيمانهم وكراهة البقاء معهم ، وجعل منتهى مراده إلى ربه ، مهاجرا

---

(١) الدر المصون للسمين ، ج٩، ص٣٢٣، ٣٢٤ بتصرف
(٢) الدر المصون للسمين ، ج٩، ص٣٢٥ بتصرف
(٣) الفتوحات الإلهية للجمل م٣، ص٥٤٩

ومفارقا إياهم ، إلى ما فيه غاية مقصده .

وقد أكد هذا بحرف السين التى تفيد وقوعه في المستقبل ، لأنها في مقابلة (لن) المؤكد للنفى .

وجاء هذا الجزم مؤكدا منه عليه السلام ، لسبق وعده سبحانه إياه بالهداية ، أو لفرط توكله .

وإنما لم يقل موسى عليه السلام مثل ذلك ، بل جاء بصيغة التوقع (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) (١) وذلك لعدم سبق وعد عدم تقدم عادة ، واقتضاء مقامة رعاية الأدب معه سبحانه ، بأن لا يقطع عليه بأمر قبل وقوعه .

وإيثار لفظ إلهبة من قوله (هب لى) لأنها في القرآن ، وكلام العرب غلب استعمالها مع العقلاء في الأولاد .

ونظيره قوله (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) (٢) وأما قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (٣) فجاء على غير الغالب أو أن المراد فيه هبة النبوة لا هبه ذاته ، وهو شئ أخر وإيثار التعبير بـ (بغلام حليم) لعدة بشارات ، أولها أنه ذكر وذلك لاختصاص الغلام به ، ثانيها أنه يبلغ أوان البلوغ بالسن المعروف،

---

(١) سورة القصص ، آية : ٢٢
(٢) سورة الشورى ، آية : ٤٩
(٣) سورة مريم ، آية : ٥٣

وأن يكون حليما .

ولذا قيل : ما نعت الله تعالى نبيا بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما السلام .

وأيثار الفاء في قوله (فلما بلغ) لبيان أنها فصيحة ، فالفاء هنا قد أفصحت عن مقدر محذوف تعويلا على شهادة الحال ، وإيذانا بعد الحاجة إلى التصريح به .

والتقدير: فوهبناه له ، ونشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه .

والظاهر تعلق (مع) بـ (السعى) لأن الأب أكمل في الرفق وبالاستصلاح له فلا يستسعيه قبل أوانه ، أو لأنه عليه السلام استوهبه لذلك .

والأول يفيد حصول رصانة العقل ، ورزانة الحلم ، مع غضاضة عوده.

والثانى يفيد استجابة دعائه عليه السلام ، وكان للغلام يومئذ ثلاث عشرة سنه والولد أحب ما يكون عند أبيه في سن يقدر فيه على إعانة الأب وقضاء حاجة ولا يقدر فيه على العصيان، وإيثار التعبير بالمضارع في قوله (أرى) و(أذبحك) لاستحضار الصورة الماضية وقت الخطاب ، لبيان نوع الغرابة فيها ، وقيل :

التكرار الرؤيا في الفعل الأول (أرى) إذ قد كررت الرؤيا في منامه حتى تأكد أنه من الله .

ولاستحضار الصورة في الفعل الثانى (أذبحك) أو لتكرار الذبح حسب تكرارالرؤيا .

وكذلك إيثار التعبير بالمضارع في قوله (ما تؤمر) فهو لاستحضار الصورة الماضية ، وللإيذان بغرابة ذلك .

وقد جاء التعبير في كل من قولى إبراهيم وإبنه عليهما السلام متفق، وذلك لعلمه بمقام أبيه ، وأنه ممن لا يجد الشيطان سبيلا بإلقاء الخيالا ت الباطلة إليه في المنام .

وهذا لا يستلزم أن يكون إبراهيم عليه السلام رأى عين ما أمر به، بل يحتمل أن يكون قد رأى ما هو تعبيره .

ويظهر هذا الاتفاق كذلك بين خطاب الأب (يا بنى) على سبيل الترحم ، وخطاب الأبن (ياأبت) على سبيل التوقير والتعظيم

و إيثار التعبير قوله (من الصابرين دون صابرا) (١) رجاء منه مع قيامه بالالتزام بالأمر أن يكون في سلك الصابرين المحتسبين ، وذلك فيه من التواضع وحسن الخضوع لأمر الله ما فيه .

قيل:ولعله وفق للصبر ببركته ، مع بركة الاستثناء (إن شاء

---

(١) سورة الكهف ، آية : ٦٩

الله).

ولم يكن لموسى عليه السلام ذلك ، لأنه لم يسلك هذا المسلك من التواضع ، فى قوله (ستجدنى إن شاء الله صابرا) حيث لم ينظم نفسه الكريمة في سلك الصابرين بل أخرج الكلام على وجه لا يشعر بوجود صابر سواه ، ولذا لم يتيسر له الصبر مع أنه لم يهمل أمر الاستثناء.

وإسناد الفداء إليه سبحانه (وفديناه) لأنه هو الأمر للذبح أبتلاء وامتحانا ، فكذلك هو الفادى .

ولكن لما كان المباشر إبراهيم في كل من الذبح والفداء جئ بصيغة تدل على أن الله هو الأمر الأول وفى الثانى ، والأمر المالك هو الفاعل في الحقيقة وإدخال إبراهيم عليه السلام كان لمباشرته الأمر والله قادر على إيصال أمره من غيره .

وهذا سر التعبير بـ (فديناه) ، ولم يقل : وفداه أو : وفديته .

وكذلك السر في طرح (إنا) في الموضع الثانى من هذه القصة و، وذلك لدفع توهم اتحاد الموضعين بنفى التكرار لمجرد التكرار، إذ الموضع الأول سيق فيه الكلام لبيان التعليل بجزاء إبراهيم وابنه عليهما السلام معا معا ، وذلك لقيامهما بأمر الله تعالى ، فناسب وجود (إنا) للجمعية بينه وبين ابنه .

والموضع الثانى سيق فيه الكلام لبيان التعليل بجزاء إبراهيم وحده بما تضمنه قوله تعالى (وتركنا عليه) فناسب حذف (إنا) للإشارة إلى هذا المعنى ، وبهذا لا يكون في الآيات تكرار .

والمقصود من هذه القصة اختبار المحبوب لمحبه ، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته فيتم عليه نعمه ، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معا .

والظاهر من آيات القصة هنا، وكذلك ترتيبها يقتضى أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام .

ويدل عليه كذلك المروى عن كثير من أهل البيت ، وليس هناك حديث صحيح مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وما روى عن أهل الكتاب من أن الذبيح هو إسحاق وإن صح بعض المروى ، عن طريقهم سندا ، فإنه لا يخفى حالهم على ذوى الألباب .

ومما يدل على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام في غير آيات هذه القصة ، قوله تعالى في سورة البقرة (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله أباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون) .

قال الإمام ابن كثير : وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب .

قال : بل في نص كتابهم إن إسماعيل عليه السلام ولدولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه السلام تسع وتسعون سنة ، وعند أهل الكتاب أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفي نسخة آخرى (بكره) فأقمحوا إسحاق ها هنا كذبا وبهتانا ، وهو مخالف لنص كتابهم .

قال ابن كثير : وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة ﷺ أيضا .

ثم قال : وليس ذلك في كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وأخذ مسلما من غير حجة .

قال : وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) .

ويستدل على ذلك أيضا بقوله (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى : بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحاق .

ويمتنع أن يكون الذبح إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه

سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لاخلف فيه ، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل عليه السلام(١).

وقال الحافظ ابن قيم الجوزية : إسماعيل هو الذبح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق ، فمردود بأكثر من عشرين وجها(٢).

وقد أستدلالهم كثير من الأصوليين بما في هذه القصة على جواز النسخ قبل الفعل .

ووجه استلالهم من هذه النصوص ، أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح إبنه ، وقد أقدم على الفعل بذبحه ، وهو في حال قيامه بالفعل نسخ عنه ، لأنه لم يفعل ، ولو كان ترك مع حضور وقته لكان عاصيا .

ولو لم يكن ما قام ما قام به أمرا ، ما كان يطلق عليه بلاء مبين ، وما احتاج إلى الفداء .

وقد خالف فيه المعتزلة بحجج ، منها أنه توريط لإبراهيم عليه السلام بما يظهر أنه أمر وليس هوبأمر وذلك غير جائز وهو كما ترى ، ليس بشئ .

---

(١) تفسير ابن كثير / والبحر المحيط لابى حيان / ٧ / ٣٧١

(٢) زاد المعا د ، لابن قيم الجوزية /

وقـد استدل بما في القصة ، على أن لو نذر أن يذبح ولده فعليه شاة .

وقيل : عليه كفارة يمين .

وقيـل أن القصـة ليـس فيهـا مـا يـدل عـلى أنـه كان نذرا من إبراهيم عليه السلام حتى يستدل به .

والمسـألة عـند الـتأمل جئ بهـا عـلى سبيل الفرض ، إذ النظم القرآنى ليس فيه ما يدل على أنه نذر .

ولـو قـدر أنه نذر ، فإنه ينزل منزلة شرع من قبلنا ، وشرع من قبلنا ليس شرعا لنا إلا إذ كان في شرعنا ما يؤيده .

وقـد عـده بعضـه نـذر معصـية ، ولا نذر في معصية الله تعالى، لكـن لـو قدر بأن وقع من أحد فعليه كفارة يمين ، كما ذهب إليه الإمام الشافعى رحمه الله تعالى .

وهذا المقدر كاف لغرض التفسير .

المعنى :

لمـا أورد إبـراهيم عـليه السلام من الحجة الواضحة على قومه عـلى مـا كـان منهم في مقابلة هذه الحجة إلا أنهم لجؤا إلى فعل العاجز عـن الجـواب مما أورده عليهـم وهو رمية في حفرة من النار والتخلص مـنه، ولكن الله نجاه وخلصه من شرورهم وكان من تخليصه منهم عبرة

لهم لو كانوا يفقهون ، وقد أنعم الله على إبراهيم عليه السلام بعد حسن اللجؤ إليه بغلام يكبر ويكون حليما وهو إسماعيل عليه السلام ، وقد ابتلاه سبحانه بالأمر بذبحه بعد بلوغه ، وذلك بعد ابتلاءه بقومة فثبت الله نبيه إبراهيم على الأمر ، وفدا ابنه بذبح عظيم القدر ، والإخلاص كل من الأب والأبن سلمهما من كل سؤ ، وجعلهما من المحسنين وقد بشر سبحانه إبراهيم عليه السلام بابنه الثاني من زوجته سارة إسحاق عليه السلام، وأنه سيولد لإسحاق يعقوب عليه السلام ، ويراه في حياته ، كما جاء في سورة هود (ومن وراء إسحاق يعقوب)وسيكون منهم أولاد كثرهم غالب الأنبياء ، ومنهم الظالم لنفسه بالكفر والمعاصى .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- سرعة المغالطة والتمويه من العاجز عن رد الحجة بالحجة .

٢- رد كيد الكافرين لعباد الله تعالى ، بكيده المتين ، فهو مع عباده المخلصين يكيد لهم ويدافع عنهم .

٣- منة الله العظيمة على عباده بالمال والأولاد لكى يبتليهم فيها لتحقيق الخلة والمحبة له وحده .

٤- الأمر من الله تعالى قد يكون للابتلاء والاختبار ، لينظر هل سيصر العبد فيثاب ، أم سيتسخط فيعاقب .

٥- يجوز الأمر بما لايستطاع لكنه لا يقع ، والعلة فيه الا بتلاء .

٦- الرضا والتسليم لأحكام الله تعالى يتسبب عنه الفوز بنعيمه في الأخرة والبشرى والرفعة في الدنيا .

٧- صلاح الآباء يمتد إلى الأولاد والذرية، ويستمر في الذرية تبعا لقوة صلاح الآباء .

قول الله تعالى ذكره :

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

منة الله تعالى على رسله بالقرب والنصرة

لما ذكر هؤلاء السادة الذين لهم من رتبة التجرد والنزاهة ما تقدم بيانه ، وكان من مقاصد ذكرهم ، تسلية النبى ﷺ وترجيته لمن اتبعه من المؤمنين ممن قارب – من شدة البلاء والقهر واليأس من النصر، أتبعهم بأمثاهم في التجردوابتدأهما بأخوين افترقا حين ولادة الثانى على حالة لايمكن الاجتماع معها عادة ،ثم اجتمعا إجتماعا لم يفترقا منه إلا بالموت، وأنشأمنهمامن الأمم ما يعجزه الوصف ويفوت الحصر .

و (منا) المنة النعمة الثقيلة ، وتكون بالفعل ، يقال : من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة، ومنه قوله تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ)(١) وهذا لا يكون إلا لله تعالى(٢).

وقد يكون بالقول ، وهو مستقبح فيما بين الناس ، إلا عند كفران النعمة .

والمقصود بالنعمة : هنا النبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية .

و(الغالبين) الغلبة القهر ، يقال : غلبته غلبا وغلبة ، وغلبا ، فأنا غالب ، وغلب عليه كذا ، أى(٣): استولى والمقصود أن الله قد جعل لهم القهر والسيطرة على أعدائهم .

و (المستبين) من بان واستبان ، وتبين وقد بينته ، ويقال : آية مبينة ، اعتبارا بمن بينها ، وآية مبينة ، والبينة : الدالة الواضحة ، عقلية كانت أو محسوسة والبيان الكشف عن الشئ ، وهو أعم من النطق ، مختص بالإنسان ، ويسمى ما بين به بيانا (٤).

والمقصود أن الله أعطاهما الكتاب الذي يبين لهما كل ما يحتاجون إليه من أنواع الهداية ، وهو التوراة ، والمستبين : البليغ في البيان والتفصيل .

والضمير في قوله (ونصرناهم) عائد على موسى وهارون وقومهما ، وقيل : عائد على الأثنين بلفظ الجمع تعظيما .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٦٤
(٢) المفردات للراغب ، ص٤٧٤
(٣) المفردات للراغب ، ص٣٦٣
(٤) نفس المصدر ، ص٦٨ ، ٦٩

و (فكانوا هم) الضمير (هم) يجوز أن يكون تأكيدا ، ويجوز أن يكون بدلا وأن يكون ضمير فصل ، وهذا الأخير هو الأظهر والفاء سببية ، والتقدير: فكانوا هم الغالبين ، بسبب ذلك على فرعون وقومه

وقوله (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) من قبيل عطف الخاص على العام ، إذا نجاؤهما وقومهما ، من جملة منه عليهم ، ولكن خصه بالذكر ، لأنه إنجاء ، إذ قد وقع فيه من المعجزات مما يستدعى التذكير به ، لشكر الله عليه بالخصوص ، وكذا ما بعده من النعم .

وإيثار الضمير (هم) فصلا بين المبتدأ والخبر ، لبيان خصوصية هذا الغلب والنصر ، وأنه لم يكن لغيرهم .

وإيثار قوله (وهدينا هما الصراط المستقيم) بعد ذكر الكتاب المستبين ، والذى به الهداية ، من قبيل العام بعد الخاص ، إذ الهدى الثانى فيه تفاصيل الشرائع وتفاريع الأحكام والهداية .

المعنى :

يخبر الله تعالى أنه من على موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة وغيرها من النعم العظيمة التى أنعم بها عليهما ، ومن أبرز هذه النعم نجاتهما وقومهما من ما كان يصيبهم من جهة فرعون وقومه ، وقد نصرهم الله عليه بإغراقه وقومة فكانوا الغالبين على عدوهم

بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم ، وزيادة فى الامتنان بإعطاء موسى عليه السلام التوراة ، وهو الكتاب الذي أبان لهم كل ما يحتاجون إليه ، ووفقهم الله سبحانه لهداية التوفيق للعمل به ، وأبقى سبحانه عليهما في الأمم المتأخرة ، الثناء الجميل الحسن ، لما قام به من حسن عمل إخلاص له سبحانه .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- أعظم المنة من الله لعباده المؤمنين المؤمنين أن يقر أعينهم بهلاك أعدائهم .

٢- الهداية والبيان لما فيه سعادة العبد في معاشه ومعاده هى النعمة الحقة التى لايعاد لها نعمة ، وقد أمر الله تعالى عباده أن يطلبوها ما داموا أحياء .

٣- الجزاء من جنس العمل ، فالعباد لله وحده والإخلاص له إحسان ، فجازاهم الله إحسانه ، وهو سلامتهم من جميع الآفات .

قول الله تعالى ذكره :

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

ذكر بعض المجددين لما اندرس من اصول الدين

وقوله (ألا تتقون) التقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف ، وقد يسمى الخوف تقوى ، فالتقوى خوفا حسب تسمية مقتضى الشئ بمقتضيه ، والمقتضى بمقتضاة وصار التقوى في تعارف الشرع : حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور وفعل المأمور (١).

وقوله (بعلا) البعل هو الذكر من الزوجين ، قال تعالى

---

(١) حاشية الشيخ زاده / ٧ / ٦٣٤

(وهذا بعلى شيخا) (١) ويجمع على بعولة ، نحو : فحل وفحولة ، ولما كان الاستعلاء من الرجل على المرأة ، فجعل سائسها والقائم عليها سمى به ، وسمى به كل مستعل على غيره فسمى العرب معبودهم الذي يتقربون به إلى الله بعلا لاعتقادهم ذلك فيه(٢)، كما هو في هذه االقصة ، وقيل : البعل الرب بلغة اليمن ، والمراد به الصنم وقوله (وتذرون) من و ذ ر، يقال فلان يذر الشئ ، أى يقذفه لقلة اعتداده به ، ولم يستعمل ماضيه(٣).

والمقصود : وتتركون عبادة الله تعالى ، أو طلب جميع حاجا تكم منه وحده.

و(الغابرين) الغابر الماكث بعد مضى ما هو معه ، يعنى فيمن طال أعمارهم وقيل : فيمن بقى ولم يسر مع لوط ، وقيل : فيمن بقى بعد في العذاب (٤)، فهى في غبرة العذاب ومسائة الانقلاب.

و(دمر) التدمير: إدخال الهلاك على الشئ ، فجرد الأرض من قاذوراتهم ونزه البلاد من أرجاسهم .

و (مصبحين) داخلين في وقت الصباح ، وهو من أصبح التامة.

---

(١) سورة هود ، آية : ٧٢
(٢) المفردات للراغب ، ص٥١٨
(٣) نفس المصدر ، ص٣٥٧
(٤) الدر المصون للسمين ، ج٩ ص٣٢٦

(أَفَلا تَعْقِلُونَ) العقل يقل للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقل : للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ، والعقلاء عقلان : عقل مطبوع(١) ، وعقل مسموع ، ولا ينفع أحدهما دون الأخر.

وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى العقل المسموع ، كما هو هنا في هذه الآية .

والتقدير : أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم ، ومخالفة الرسول قدر مشترك بينكم .

والاستفهام فيه للتوبيخ والتقريع من عدم الاعتبار والاتعاظ بما وقع بهم ، مع قرب المشاهدة لقراهم ومنازلهم المدمرة .

وقرأ العامة (إلياس) بكسر الهمزة ، وهى همزة قطع وقرئ سبعية بهمزة وصل (٢) ووجه القراءتين أنه اسم أعجمى تلاعبت به العرب، فقطعت همزته تارة ووصلها أخرى (٣).

قيل : والمقصود به أنه ابن إلياسين المذكور بعد من ولد هارون أخى موسى .

---

(١) المفردات للراغب ٣٤١ ، ٣٤٢

(٢) الدر المصون للسمين ج٩ / ص٣٢٦

(٣) نفس المصدر ج٩ / ص٣٢٦

وقيل : هو إدريس (١)، ويدل عليه قراءة عبد الله والأعمشى وابن وثاب .

قرؤا : وإن إدريس) ، وهى قراءة شاذة لمخالفتها الرسم .

وقرئ : إدراس ، وإيليس ، وهما شاذتان .

وقرأ العامة (بعلا) بالنصب والتنوين ، وقرئ (بعلاء) بالمد على وزن حمراء(٢) قيل : هو اسم امرأة أتتهم بضلالة فاتبعوها ، وهى قراءة شاذة وإن كانت عربية .

وقرئ سبعية (الله ربكم ورب) بنصب الثلاثة ، وذلك من ثلاثة أوجه : النصب على المدح أو البدل أو البيان .

وقرئ بالرفع ، إما على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : هو الله ، أو على أن لفظ الجلالة مبتدأ وما بعده الخبر .

وقرئ سبعية (إلياسين) ، آل ياسين ، بإضافة (آل) ، بمعنى أهل إلى (ياسين) وقرأ الباقون بسكون اللام موصولة بـ (ياسين) ، والمقصود بـ (ياسين) (٣) إلياس المتقدم، و(آله)رهطه وقومه المؤمنون.

وأما القراءة بسكون اللام ، فهى جمع إلياس المتقدم ، وجمع باعتبار أصحابه كالمهالبة والأشاعثة ، في المهلب وبنيه والأشعث وقومه.

---

(١) نفس المصدر ج٩/ ص٣٢٧

(٢) البحر المحيط لأبى حيان ج ٧/ ٣٧٣

(٣) الدر المصون للسمين ج٩ ص٣٢٨

وقرئ غير ما ذكر ، غير أنه شاذ(١).

وقوله (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ) الظاهر أن هذا الاستثناء من (المحضرون) وذهب إليه بعض المفسرين(٢) ، وهو غير سديد،بل الحق أنه من الواو في (كذبوه) فهو استثناء متصل من فاعله ، وفيه دلالة على أن في قومه من لم يكذبه ، فلذلك استثنوا ، ولا يجوز أن يكونوا مستثنى من ضمير (محضرون) لأنه يلزم أن يكونوا مندرجين فيمن كذب لكنهم لم يحضروا لكونهم عباد الله المخلصين ، وهو بين الفساد.

لا يقال : هو مستثنى منه استثناء منقطعا ، لأنه يصير المعنى : لكن عباد الله المخلصين من غير هؤلاء لم يحضروا ، ولا حاجة إلى هذا الوجه ، إذ به يفسد نظم الكلام .

وقوله (مصبحين) جاء في موضع الحال ، بمعنى داخلين في الصباح.

و (بالليل) معطوف على الحال قبلها الذي هو (مصبحين) ، بمعنى: متلبسين أو ملتبسين بالليل(٣)، والمراد : ومساء ، والتقدير تمرون على منازلهم في متاجركم وأنتم مسافرون إلى الشام صباحا ومساء ، أو نهارا وليلا.

---

(١) نفس المصدر ج٩ ص٣٢٩

(٢) الدر المصون للسمين ج٩ / ٣٢٨

(٣) الدر المصون للسمين ، ج٩، ص٣٢٩

إيثار التعبير ب (تذرون) دون تدعون بفتح التاء والدال ، لأن مادة (وذر) تدور على ما يكره ، فالمعنى : وتتركون ترك المهل الذي من شأنه أن يزهد فيه ولو قيل : وتدعون تهافتا على الجناس - لـ(تدعون بعلا) لم يفد هذا وانقلب المراد(١) وكان التعبير بـ (تذرون) لبيان بشاعة حالهم في الإعراض عن ربهم .

وإيثار ذكر الربوبية لآبائهم الأولين، إنما لتأكيد إنكار تركهم إياه تعالى، والإشارة إلى بطلان آراء آبائهم ، مثل بطلان آرائهم ، التى هم عليها في دعائهم لغير الله وإيثار (مصبحين) للتنبيه على أنه وقت الصبح الذي قلبت فيه مدائنهم عليهم وللتذكير بحالهم فيه .

وإيثار (وبالليل) للتنبيه بأنه الوقت الذي أمر رسولهم بالخروج فيه ، وهو وقت النجاة ، مع أن الليل في نفسه له منظر الهول .

المعنى :

يخبر الله تعالى أن إلياس عليه السلام أحد أنبياء بنى إسرائيل ، من المرسلين الكرام إلى قومهم ، وقد أمرهم بعبادة الله وحده ، لأنه رب كل شئ ومليه ونهاهم عن عبادة الأصنام والأوثان ، وهو سبحانه ربهم ورب آبائهم ورب العالمين ، فما كان منهم إلا أن كذبوا دعوته ، وبسبب هذا فهم محضرون في العذاب لكن عباده الذين اصطفاهم بالطاعة والتوحيد فهم ناجون من العذاب، وقد أبقينا لهذا الثناء الحسن

---

(١) نظم الدر للإمام البقاعى ج٦ ص٣٣٨

على إلياس في الأمم والسلامة من كل أفة ، وأنه من المؤمنين الصادقين ، ومثل ذلك الجزاء الذي جزاه به ، وهو الجزاء الحسن الذي نجزى به كل من أحسن عمله ، وأخلص الدين لله تعالى ، ومثل إلياس كان نبى الله لوط ، وهو من فئة الأنبياء المرسلين ، وقد أرسله لله إلى أهل سدوم الذين كانوا يتعاطون المنكرات والمعاصى والفواحش ، وقد نجاه الله تعالى وأهله من والمؤمنين والدماروالهلاك، وجعل الله تعالى قراهم عبرة وعظة للمتعقلين المتذكرين .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- لقد قامت الأدل على أن الله هو رب كل شئ ومليكه ، إذ هو خالق كل شئ فاستلزم لذلك عبادته وحده من كل مخلوق .

٢- إن الله سبحانه من رحمته أن يبعث في كل فترة زمنية يندرس فيها التوحيد الخالص أو وقوع العباد في شبهات الاعتقاد بسبب انحرافهم ، من يرجعهم إلى الدين الحق .

٣- إهلاك كل قوم استحقوا الهلاك على قدر جرمهم فكلما كان الجرم قبيحا كان العقاب أعظم شدة .

٤- وجوب الاعتبار والاتعاظ بما أخذ المجرمون به ، إذ العاقل من اتعظ بغيره مع وجود الآثار الدالة على هلاكهم .

قول الله تعالى ذكره :

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ

رجاء الانبياء والمرسلين في سلامة امهم

ولما أكمل سبحانه ذكر ما أراد من أمور من كان على أيديهم هلاك في الدنيا أوفى الآخرة ، ختم سبحانه بذكر من آل أمر قومه إلى سلامة وإيمان ونعمه وإحسان ، تغليبا للترجية على التأسية والتعزية ، مع ذكر التأكيد في تصدير جمل من سلموا ، لغرابة قصتهم وعجيب ما وقع لنبيهم .

و(أبق) هرب حين أرسل من سيده الذي شرفه الله بالرسالة ضعفا عن حملها فالآبق الهارب ، والإباق الهرب من السيد إلى حيث يظن أنه يخفى عليه ، ولكن لما كان يونس عليه السلام هرب من قومه بغير إذن ربه ، حسن إطلاق الأبق عليه .

و (الفلك) هو البيت الذي يسافر فيه على ظهر البحر (١).

و (المشحون) المملؤ الموقر ملأ ، فلا سعة فيه لشئ آخر يكون فيه ، فليس لأهله حاجة في الإقامة لحظة واحدة لانتظار شئ من الأشياء ، فحين وضع نبى الله رجله فيه ساروا ، فاضطرب عليهم الأمر ، وعظم الزلزال حتى أشرف مركبهم على الغرق (٢)، على هيئة عرفوا بها أن ذلك لعبد أبق من سيده .

و(فساهم) المساهمة المقارعة ، وهو إلقاء السهام على جهة القرعة ، فاستهموا فساهم يونس عليه السلام معهم.

و (المدحضين) من المغلوبين بالقرعة(٣)، فهو من الموقعين في الدحض وهو الزلق ، فنزل عن مكان الظفر ، بأن وقعت القرعة عليه فرموه في البحر .

و(فالتقمه) الإلتقام الابتلاع ، فقد ابتلعه الحوت كما تبتلع اللقمة(٤).

و (مليم) داخل في الملامة ، أو أت بما يلام عليه ، أو مليم نفسه يقال : ألام فلان : فعل ما يلام عليه (٥).

---

(١) نظم الدر للبقاعى ، ج٦ ص٣٤١
(٢) نظم الدر للبقاعى ، ج٦ ص٣٤١
(٣) تفسير أبو السعود ، ج٧ ص٢٠٥
(٤) نظم الدر للبقاعى ج٦ ص٣٤١
(٥) الدر المصون للسمين الحلبى ، ج٩ ص٣٣١

و (المسبحين) التسبيح التنزيه، والمراد به هنا الذكر، فهو من الذاكرين الله تعالى كثيرابالتسبيح، وذلك مدة عمره،أو في بطن الحوت، وقيل من المسبحين المصلين فإنه عليه السلام كان كثير الصلاة (١)، والظاهر أنه كان من العريقين في التسبيح فالتسبيح ديدنه سواء كان بالصلاة أو غيرها .

و (للبث) اللبث ملازمة الإقامة في المكان ، والمراد : لبقي يونس عليه السلام مقيما في بطن الحوت إلى يوم البعث .

و (فنبذناه) النبذ إلقاء الشئ وطرحه ورميه(٢)، بأن حمل الله تعالى الحوت على لفظه ، وقيد عدم الاعتداد بالشئ المطروح مطروح هنا ، واعتداد الله تعالى بالأنبياء والمرسلين عظيم ، فهو معتد به في حال إلقائه عليع السلام .

و (بالعراء) العراء المكان القفر الواسع الخالى عن ساترمن نبت أو غيره مشتق من العرى وهو عدم السترة ، سميت به الأرض الجرداء لعدم استتارها بشئ .

و (سقيم) السقيم العليل ، فقد كان حين طرح عليه السلام عليل من شدة ما ناله من جوف الحوت ، بحيث أنه كان كالطفل ساعة يولد .

---

(١) تفسير أبى السعود ، ج٧ ص٢٠٥

(٢) روح المعانى للألوسى م٨ ، ج٢٣، ص١٤٥

و (يَقْطِينٍ) اليقطين من الشجر الذي يلزم الأرض ، ويقطن فيها وتصلح لأن بأوى إليها ويقطن عندها حتى يصلح حاله ، فإنها صارت عليه كالعريش،والمراد به هنا شجرة القرع لعظم ورقها وبرد ظلها ونعومة ملمسها.

قال أبو حيان:وماء ورقه إذا رش به مكان لايقربه ذباب أصلا(١).

و (حين) الحين وقت بلوغ الشئ وحصوله ، وهو مبهم ، فالمراد بالحين هنا آجلهم المسماة في الأزل .

وقوله (إذ أبق) ظرف للمرسلين ، فهو يشير إلى أن يونس عليه السلام من المرسلين حتى في هذه الحالة التى يذكرها عنه ، وهو أنه أبق.

و (وَهُوَ مُلِيمٌ) (٢) الجملة حال من الضمير في قوله (فالتقمة) والتقدير : فالتقم الحوت يونس عليه السلام وهوى به حتى انتهى إلى ما انتهى ، وهو يلوم نفسه على ما وقع منه .

و (في بطنه) متعلق بـ (لبث) وقيل : إنه حال ، والتقدير : حالة كونه مستقرا في بطنه .

---

(١)
(٢)

و (أو) في قوله (أويزيدون) على أوجه :

الأول أنها بمعنى الواو ، والتقدير : مائة ألف ويزيدون(١).

الثاني:أنها للإبهام على المخاطب ، من غير اعتبار للناظر لنكتة.

الثالث : أنها للشك نظرا إلى الناظر إليهم من البشر ، على معنى من رآهم شك في عددهم ، وقال : مائة ألف أو يزيدون .

الرابع : بمعنى بل ، والتقدير : مائة ألف بل يزيدون .

الخامس : بمعنى الإباحة ، لأن الناظر إليهم يباح له أن يحزرهم بهذا القدر(٢).

السادس : التخيير ، فالناظر إليهم مخير بين أن يحزرهم كذا أو كذا (٣).

السابع : التنويع أو التفضيل بعد الإجمال لمزيد الإيضاح .

والذى يدل عليه السياق ويوجبه هو أنها على المعنى الأقرب لوضعها ، وهو الشك بالنسبة للناظر إليهم، إذ المقصود بيان كثرتهم، أو أن الزيادة ليست كثيرة مفرطة ، فالناظر إليهم عند جمعهم يرى عرفا أنهم يقابلون بهذا العدد الذي هو ألف أو يزيدون عنه بناء على عدم الاستقراء لا العرف .

---

(١)

(٢) الدر المصون للسمين ج٦ ، ص٣٣٠

(٣) نفس المصدر ج٦ ، ص٣٣٠

وقرئ (يونس) بكسر النون (١).

وقرئ (مليم) بفتح الميم ، من لام يلوم ، وهى شاذة جدا ، إن كان قياسها(ملوم) لأنها من ذات الواو ، كمقول ومصون(٢).

وإيثار(أبق) عن هرب ، لأن الإباق الهرب من غير خوف وكد وعمل ، بخلاف الهارب فإنه قد يكون عن خوف وغيره ، وحسن إطلاق أبق عليه ، لهروبه من قومه من غير إذن ربه .

وإيثار (من المسبحين) دون مسبحا ، إذ كثرة التسبيح تستفاد من جعله من المسبحين ، فإذا قيل : فلان من العلماء أبلغ من فلان عالم ، لجعله عريقا فيهم منسوبا إليهم ، ومثله يستلزم الكثرة .

وإيثار(لبث) دون بقي لبيان أنه حي ،وأنه يعيش حياته في بطن الحوت ،وكأنه مقامه الذي يلبث فيه .

وإيثار (انبتنا عليه) دون له، لبيان العلة و تصوير لمعنى الاستعلاء وأنها صارت عليه كالخيمة لاحتياجه إلى الظل والدفء في نفس الوقت ،إذ إنه خرج من بطن الحوت كحالة خروج الطفل من بطن أمه .

وإيثار التأخير في قوله (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) وإن كان معطوفا على قوله (وإن يونس) فهو على سبيل البيان

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ج ٧/ ٣٧٥

(٢) الدر المصون للسمين ج٦ ، ص٣٣١

لدلالته على ابتداء الحال وانتهائه وعلى بيان المقصود من الإرسال وهو الإيمان ، واعتراض بقصة الإبلق اعتناء بها ، وللتنبيه على غرابتها وما فيها من العجائب التى جاءت مخالفة للعادة ، للفت النظر على أنها معجزة وآية دالة على كمال قدرة الله تعالى ، وصدق دعوة نبيه يونس عليه السلام.

والفاء في قوله (فآمنوا) إما للتعقيب العرفى ، أوأنها للتفصيل أو السببية ويلاحظ أن هذا القصة والتى قبلها لم يختما بما ختم به القصص قبلهما ،وهو ذكر السلام على الرسول المرسل في نهاية القصة ، وبيان أنه من المحسنين، ولعل عدم ذكر ذلك في هاتين القصتين راجع إلى التفريق بينهما وبين أرباب الشرائع الكبار وأولى العزم من الرسل ، أو راجع إلى الاكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل فى آخر السورة ، ولتأخرهما في الذكر قربا من هذا التسليم ، وأن قصتهما وهما ختام هذه السورة ، وما ذكر بعدهما إلى التسليم إنما هو تأكيد لما ذكر في أول السورة .

المعنى :

وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه يونس بن متى عليه السلام ، وقد أرسله إلى أهل نينوى يدعوهم إلى التوحيد وترك الوثنية ، وذلك حين هرب من قومه بغير إذن ربه غاضبا من قومه، وقد لجأ إلى السفينة المملوءة ركابا ، أمتعة فاقترع فكان من المغلوبين في القرعة ، فألقى في

البحر، وقد ابتلعه الحوت ، وهو يلوم نفسه بسببه ما أتى به ، فلو لم يكن عريقا في التسبيح ، لبقى في بطن الحوت إلى يوم النشر والحشر ، فألقاه الله تعالى من بطن الحوت في مكان خال من الشجر والنبات على ساحل البحر ، وهو ضعيف البدن عليل مما ناله ، فأنبت الله له شجرة تظلله ويأكل منها حتى اشتد وصلب ، ولقد آمن قومه به فنجوا من عذاب الله تعالى ، ومتعهم الله بصنوف النعم حتى جاءهم آجالهم .

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- وجوب الصبر على أمر الله تعالى ، وعدم استعجاله أو الخروج عنه بغير إذنه سبحانه،إذ الحكمة الاستمرارية مع أمر الله تعالى حتى النهاية .

٢- الحث على الإكثار من الذكر والتسبيح ، وتعظيم شأنه،لأن من أقبل عليه في السراء أخذ بيده عند الضراء ، فالذكر المستمر سبب من أسباب النجاة .

٣- جواز الاستدلال بالآيات على مشروعية القرعة ، وأنها من الأدلة الشرعية .

٤- لطف الله تعالى بعباده وأولياءه ، وأنه ما كان ليبتليهم من أجل أن يهلكهم وإنما ليرفع من درجاتهم ، ويكونوا أسوة للخلق ، وقد جعل لهم العاقبة الحسنى إذ العاقبة للمتقين .

٥- الإيمان ووسائل تقويته سبب أكيد من أسباب النجاة من عذاب الله تعالى ، وبه يسعد الخلق في الدنيا والآخرة .

قول الله تعالى ذكره :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

ذكر القصص في القرآن لإقامة الدليل على ضلال المقلدين لآبائهم

ولما كانت السورة قاربت على الانتهاء ، بعد تقريرها لأصول الدين منكرة على من أنكر البعث والنشور ، وإقامة الحجج والبراهين على أنه حق ، بعد تقرير الألوهية لله وحده ، وقد ذكر حال الرسل مع أقوامهم في تقرير ذلك ، أمر نبيه محمد ﷺ هنا أن يستخبر هؤلاء المشركين عن وجه كون البنات ، وهى أوضع الجنسين له تعالى بزعمهم والبنين الذين هم أرفعهما لهم ، فاءنهم لايستطيعون أن يثبتوا له وجها ، لأنه في غاية البطلان ، وفيه اتصال بأول السورة ، حيث قرر التوحيد في أولها بالتدليل عليه بكمال الخلق ، وحشر الناس يوم القيامة للحساب وهنا التدليل على كمال الألوهية بنفى الشركة من كل وجه، وأن هؤلاء المخاطبين هنا زادوا على الشرك ضلالات أخر ، مبينا

أن توحيد الألوهية هو لب ما جاءت به الرسل ، ومن أجله نزلت الكتب ، فهو ربط النهاية بالبداية ، ورد العجز على الصدر .

وقوله (أصطفى) الاصطفاء أخذ صفوة الشئ لنفسه ، والاختيار تناول خيره والاجتباء تناول جبايته ، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيا عن الشوب الموجود في غيره ، وقد يكون باختياره وبحكمه(١).

والمقصود بالاستفهام هنا الإنكار المتضمن نفى وقوع الاصطفاء ، والتقدير : أخبرونى هل اختار هذا السيد الذي أنتم مقرون بتمام علمه وشمول قدرته وعلو سؤدده ما تسترذلونه ، وفيه إقرار لكذبهم ، وإثبات لإفكهم .

و(سلطان) السلطان الحجة الواضحة أو التمكن والقهر وسمى الحجة سلطانا وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب ، لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين(٢).

والمقصود نفى أن يكون لديهم دليل أو حجة واضحة نزلت عليهم من السماء أو لم تنزل ، بأن الملائكة بنات الله ، إذ الحكم بذلك لابد له من مستند حسى أوعقلى وحيث انتفى كلاهما ، فلابد من مستند نقلى ، وهو منتف بالضرورة .

---

(١) المفردات للراغب /٢٣٨

(٢) المفردات للراغب /٢٣٨

(صَـادِقِينَ) الصدق الإخبار بالشئ أو الأمر على ما هو عليه في الواقـع وضـده الكذب ، وهو إخبار بخلاف ما هو عليه في الواقع ، وهو تعجيـز لهم ، بأن يأتوا بدليل نقلى على ما ادعوه ، إذ لادليل نقلى على هذا الذي زعموه ، فثبت بذلك كذبهم في دعواهم ، وأنها دعوى باطلة لامستند لها .

وقـرأ العامـة (ولـد الله) عـلى أن (ولـد) فعـل ماضى مسند لـلجلالة ، أى أتـى بالولد تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وقرئ (ولـد الله) بإضـافة الولـد إليـه ، أى : يقولون : الملائكة ولده ، فحذف المبتدأ للعلم به ، وأبقى خبره (١).

وقـرأ العامـة (أصطفى) بفتح الهمزة على أنها همزة استفهام وهـى همـزة قطـع وقد حذف معها همزة الوصل استغناء عنها ، والمراد بالاسـتفهام الإنكـار والـتقريع وقـرئ سبعية بهمزة وصل تثبت ابتداء وتسقط درجا .

قـال السـمين : وفيـه وجهـان ، أحدهما أنه على نية الاستفهام وإنما حذف للعلم به .

الثانى:أن هذه الجملة بدل من الجملة المحكية بالقول (ولد الله).

والـتقدير : يقولـون كـذا ، ويقولـون : اصـطفى هـذا الجنس على هذا

---

(١) الدر المصون للسمين / ٣٣٣/٩

الجنس(١) والكلام على هذا باق على الإخبار ، وليس دخيلا بين نسيبين ، من جهة المعنى ، أما من جهة الإعراب ، فهى مرتبطة أتم ارتباط ، وهى بهذا نسيبة بين نسيبين(٢).

والأول أن يخرج على حذف أداة الاستفهام .

ونقل أبو البقاء أنه قرئ (آصطفى) بالمد ، قال : وهو بعيد جدا(٣).

وقرئ (تذكرون) بسكون الذال وتخفيف الكاف ، والتخفيف مع السكون يفيد توبيخهم على أنهم لم يتذكروا أدنى تذكر ، أنه منزه عن ذلك.

والفاء في قوله (فَاسْتَفْتِهِمْ) للعطف والتعقيب ، لأنه أمر بهما من غير تراخ والفاء في أول السورة في المعطوف عليه جزائية في جواب شرط مقدر ، وأورد عليه أبو حيان أن فيه الفصل الطويل ، وقد استقبح النحاة الفصل بجملة ، فما ظنك بالفصل بجمل(٤).

وأجيب بأن ما ذكره النحاة من الاستقباح ، إنما هو فيما كان في المفردات ، وأما الجمل فلاستقلالها يغتفر فيها ذلك .

---

(١) الدر المصون للسمين /٩/٣٣٣/ ٣٣٤

(٢) حاشية الشهاب / ٤/ ٢٨٨/ ٢٨٩ بتصرف

(٣) إملاء ما من به الرحمن للعكبرى / ٢ / ٢٠٨

(٤) البحر المحيط لأبى حيان / ٧ / ٣٧٦

والكلام هنا لما تعانقت معانيه ، وارتبطت مبانيه ، وأخذ بعضها بحجز بعض حتى كأن الجميع كلمة واحدة لم يعد البعد بعدا(١).

ووجه ترتيب المعطوف على ما قبل كوجه ترتب المعطوف عليه ، فإن كونه تعالى رب السموات والأرض ، وتلك الخلائق العظيمة ، كما دل على وحدته تعالى وقدرته عز وجل دال على تنزهه سبحانه عن الولد.

والمناسبة بين الرد على منكرى البعث ، والرد على مثبتى الولد ظاهرة ، وقد اتحد في الجملتين السائل والمسؤل والأمر .

وقوله (وَهُمْ شَاهِدُونَ) جملة حالية من الملائكة أو من الفاعل (خلقنا) ، والرابط الواو ، والتقدير : بل أخلقناهم إناثا والحال أنهم حاضرون حينئذ(٢)، وفيه استهزاء بهم وتجهيل لهم ، إذ أمثال هذه الأمور لاتعلم إلا بالمشاهدة .

و(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) جملتان استفهاميتان ، ليس لإحداهما تعلق بالأخرى من حيث الإعراب (٣)، فالاستفهام الأول كان عما استقر لهم وثبت ، وهو استفهام إنكارى ، والتقدير : أى شئ

---

(١) حاشية الشهاب /٧/ ٢٨٧
(٢) روح المعانى للألوسى م٨/ ٢٣/ ١٥٠
(٣) الدر المصون للسمين / ٩/ ٣٣٤

ثبت أو استقر لديكم حتى حكمتم بهذا الحكم الذي تقضى ببطلانه بداهة العقول .

والاستفهام الثانى تعجيب من حكمهم بهذا الحكم الجائر ، وهو أنهم نسبوا أخس الجنسين إليهم (١).

و(أَفَلا تَذَكَّرُونَ) استفهام توبيخى ، والفاء للعطف على مقدر ، والتقدير : تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلان هذا الحكم ، فإن بطلانه مركوز في عقل كل ذكى وغبى .

و(أم لكم) اضراب انتقالى بمعنى : بل والهمزة ، فهو انتقال من توبيخ إلى توبيخ وتبكيت إلى تبكيت ، والتقدير : بل ألكم حجة، والمراد ليس لديهم أى حجة أودليل حسى أوعقلى على ما زعموا .

و(فَأْتُوا بِكِتَابِكُم) الأمر للتعجيز ، والمعنى فأتوا بكتابكم (الناطق بصحة دعواكم) ولإيثار الفاء في قوله (فاستفتهم) دون الواو ، لبيان شدة الارتباط المعنوى بين بداية السورة وآخرها ، مع العطف اللفظى ، فالسورة من أولها إلى آخرها مرتبطة بعضها ببعض معنى ، لبيان وإبراز الموضوع الذي سيقت من أجله وهو إقامة الحجة على أحقية البعث والنشور ، وذم الشرك بكل أنواعه ، لتنافيه مع التوحيد الذي هو وجه واحد ،.لتوجه واحد للواحد سبحانه .

---

(١) الدر المصون / ٩/ ٣٣٤

وإيـثار لفـظ الشهادة دون غيرها لبيان غاية الاستهزاء بهم وفيه تجهيـل لهم ، إذ أمثال هذه الأمور لاتعلم إلا بالمشاهدة ، فلا بد أن يكون القـائل بأنوثتهم شاهدا عند خلقهم ، ولذا قال في آية أخرى (أشهدوا خلقهم)(١) فأصل مذهبهم في هذا هو الإفك الصريح والافتراء القبيح ، إذ لادليل لهم ولا شبهة .

وإيثار الاستفهام في قوله (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ) ولم يقل : لم يصطف البـنات عـلى البـنين ، ولا البـنين عـلى البنات ، لإفادة إثبات إفكهم ، وإقرارهم بكذبهم .

وإيثار الالتفات في قوله (مالكم كيف تحكمون) من الغيبة إلى الخطاب لبيان زيادة التوبيخ والتقريع والتبكيت .

وإيـثار إضـافة الكـتاب إليهـم في قوله (فأتوا بكتابكم) لبيان غاية التهكم بهم ، إذ مثل هؤلاء لاكتاب لهم يأبه به .

المعنى :

هـذه الآيـات العظـيمة فيهـا مـن الأنباء عن السخط العظيم والإنكـار الفظيـع لأقـاويل طوائـف الكفـر والمشـركين ، والاسـتبعاد الشـديد لأباطيـلهم وتسـفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم ، مع الاستهزاء بهم والتعجب من جهلهم .

---

(١) سورة الزخرف ، آية ١٩

إذ يستحيل على الله تعالى الولد ، لأن هذا يتنافى مع كمال ألوهيته وهو دليل الاحتياج ، والله غنى عن خلقه أجمعين غنى مطلقا من كل وجه ، والخلق محتاجون إليه من كل وجه ، فالله تعالى واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله، لم يلد ولم يولد ، وليس له كفؤ ولا نظير ولامثيل.

والواجب على العباد أن يؤمنوا بما غاب عنهم مما أخبر به سبحانه عن بعض خلقه ، إذ من جملة صفات المتقين الإيمان بالغيب، فالتقول على ما غاب عن الخلق بأنه على هيئة كذا افتراء على الله تعالى وعلى خلقه ، من غير دليل قبح شنيع وجرم فظيع ، وهو تكلف من غير تكليف ، وصاحبه ملوم مذموم ، لأنه قد وقع في الكذب على الله تعالى ، ودل ذلك على سفه عقولهم ، وحق الاستهزاء بهم

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- القول بغير علم في أمر من الأمور العقلية والنقلية قبيح ، وقول لايؤبه به ولاقيمة له .

٢- من أقبح القبح الكذب على الله تعالى بالقول عليه بغير علم ، بل هو من أظلم الظلم .

٣- العلم لايكون علما مقبولا إلا إذا كان مستندا إلى دليل ، فالعلم هو معرفة الحق بدليله ، وعلم من غير دليل ، لايستحق هذا

الاسم.

٤- أولى المصادر والأدلة على وجه الاطلاق فيما يتعلق بالله تعالى وما غاب عنا هو القرآن الكريم ، لأنه كلام الله تعالى الذي يخبر بالحق والصدق في المغيبات والمشاهدات .

٥- وجوب الدليل على النافى والمثبت ، فالذى يثبت أمرا يجب أن يتبت ذلك بالدليل ، وكذا الذي ينفى .

قول الله تعالى ذكره :

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ * وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

تفاوت مقامات الملائكة

ولما تم إظهار ضلالهم ، بكتهم في أسلوب آخر معرضا عن خطابهم تخويفا من إحلال عذابه بهم ، مشيرا إلى انهم محضرون إليه بالبعث كرها ليعاملوا بالعدل مع بقية الخلائق يوم الفصل ، هذا اليوم الذي يظهر فيه لكل أحد مقاصد الصفات وتتلاشى عند تلك المظاهر أعيان الكائنات ، وقد نزه نفسه سبحانه عما قالوه من الباطل ، لما له من صفات العظمة تنزها يفوت الحصر ، مبينا أنهم وما يعبدون من الأوثان لايملكون شيئا ، فهم ومعبوداتهم حقراء ضعفاء ، مذكرا بعباده الذين اصطفاهم لأمره ، وهم له عبادون ، منزهون له سبحانه عن كل

نقص مما ادعاه المبطلون، ولذا فقد جعل لكل واحد منهم مقاما معلوما قدره سبحانه وتعالى فى الأزل ، فهم عباده الملائكة المكرمون ، لايعصونه و يفعلون ما يؤمرون.

و(الجنة) أصل مادة جن للاستتار ، والجنة جماعة الجن الروحانيين المستترة عن الحواس كلها بإزاء الإنس ، فعلى هذا تدخل فيه الملائكة والشياطين ، فكل ملائكة جن وليس كل جن ملائكة .

وقد اختلف الناس في المراد بالجنة والنسب ، فذهب فريق منهم إلى أن المراد بالجنة الشياطين ، وأريد بالنسب المصاهرة ، والذى قال هم كفار قريش ، لما قالوا : الملائكة بنات الله تعالى ، فقال لهم أبو بكر ﷺ ، على سبيل التبكيت : فمن أمامهم ؟ فقالوا : بنات سروات الجن(١).

وقيل : جعلوا بينهم وبينه سبحانه مناسبة ، حيث أشركوهم به تعالى في استحقاق العبادة ، وقد روى هذا عن الحسن (٢).

وقيل : المراد بالجنة الملائكة ، وهو ما تضمنه قولهم قبل : الملائكة بنات الله تعالى ، وأعيد تمهيدا لما يعقبه (٣)، وهو مبنى على أن الجن والملك جنس واحد مختلف النوع ، يجمعهما الاستتار .

---

(١) جامع البيان للطبرى / م ١٢ / ٢٣ / ٢٠٨

(٢) نفس المصدر م / ١٢ / ٢٣ / ١٠٨

(٣) نفس المصدر م / ١٢ / ٢٣ / ١٠٨

وقيل : إن نوعا من الملائكة عليهم السلام يسمى بالجن ، ومنهم إبليس ، وعبر عن الملائكة بالجنة حطا لهم ، روى ذلك عن ابن عباس ﷺ (١).

وقد قيل عن قوم من الزنادقة قول ، وهو قريب من مذهب المجوس القائلين بإلهين ، وهو قول بعيد عن ظاهر الآيات وسياقها ، إذ الضمائر في هذه الآيات وما قبلها في الكفار المخاطبين من العرب ، وليس عموم الكفرة (٢).

والقول الذي يدل عليه السياق والسباق وظاهر الآيات هو الأول ، والمعنى: وجعل الذين كفروا بين الله تعالى ، وبين الجنة مصاهرة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ووالله لقد علمت الشياطين من الجن بأنهم أنفسهم وكذا سائر الكفرة القائلين بهذا القول معذبون ، لما أن الله عز وجل توعد إبليس عليه اللعنة بما يدل على ذلك .

و(نسبا) النسب والنسبة اشتراك من جهة أحد الأبوين(٣) ومنه قوله تعالى (فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً) (٤) والصهر الختن وأهل البيت المرأة .

و(سُبْحَانَ) مصدر سبح ، والتسبيح تنزيه الله تعالى عما لايليق

---

(١) نفس المصدر م / ١٢ / ٢٣ / ١٠٨
(٢) روح المعانى للألوسى م٨/ ج٢٣/ص١٥١
(٣) سورة الفرقان / آية ٥٤
(٤) المفردات للراغب / ٤٩٠

بـه،من السـبح وهـو المـر السـريع في الماء وفى الهواء ، فالمسبح لله تعالى يبعده عما لايليق ، كما يبعد السابح في الماء .

و(بفاتـتين) مـن فتن فلان على فلان أمرأته أفسدها عليه(١)، ويسـتلزم مـنه التعـبير والتـبديل ، والمعـنى : فـإنكم ومعـبوديكم أيها المشـركون لستم بفاتنين عليه تعالى بإفساد عباده وإضلالهم إلا من سبق عليه القول أنه من أهل النار .

و(صـل) مـن صـلى يصـلى صـليا ، وصليت الشاة شويتها ، وهـى مصـلية ، قـال تعـالى (أصلوها فاصبروا أولا تصبروا) (٢) وقال سبحانه (يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى) (٣)

وقـوله(سأصليه سقر) (٤) فصلى النار هو مقاساة حرها فيشوى بها.

فصـلى الجحيـم وهـو الشـواء فيهـا، لايكـون إلا للفاسـدين الضالين .

و(مقـام) المقـام يكـون مصـدرا واسم مكان القيام وزمانه(٥)، مثال الأول قوله تعالى (إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى) (٦) ومثال

---

(١) تفسير أبو السعود /٢٠٩/٧
(٢) سورة الطور/ آية ١٦
(٣) سورة الأعلى / آية ١٢
(٤) سورة المدثر / آية ٢٦
(٥) تفسير أبى السعود /٢٠٩/٧
(٦) سورة هود / آية ٧١

الثانى قوله تعالى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) (١) ، والمقصود هنا مقام معلوم في العبادة .

والمعنى : وما منا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة والانتهاء ، إلى أمر الله في تدبير العالم .

و(ذكرا) الذكر الكتاب ، والمراد به هنا كتاب من جنس الكتب التى نزلت على الأمم قبلهم ، كالتوراة والإنجيل ، في كونها من عند الله تعالى فقد زعموا أن لو جاءهم ذكر من عند الله ، كذكر من كان قبلهم لأخلصوا له العبادة ، ولما خالفوا كما خالف الأولون ، فقد جاءهم سيد الأذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب ففروا به .

وقرئ (صل) صالوا الجحيم(٢) ، بالواو على أنه جمع سلامة ، سقطت النون للإضافة ، فهو على قراءة (صل) محمول على لفظ (من) فأفرد وعلى قراءة (صالوا) محمول على معنى (من) مجمع برفع النون.

قال أبو حيان : ومن لم يثبت الواو احتمل أن يكون جمعا وحذفت الواو خطا، كما حذفت في حالة الوصل لفظا لأجل التقاء الساكنين ، واحتمل أن يكون صل مفردا حذفت لامه تخفيفا ، وجرى

---

(١) سورة البقرة / آية ١٢٥

(٢) البحر المحيط لأبى حيان /٧ / ٣٧٩، وقد نسب هذه القراءة للحسن

الإعـراب في عينه كما حذف من قوله (وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ) (١) وقوله (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآت) (٢) ، ورفع الراء في (الْجَوَارِ) (٣).

وقوله (إلا عباد الله) مستثنى منقطع، والمستثنى منه إما فاعل.

(جعـلوا) والتقدير : جعلوا بينه وبين الجنة نسبا لكن عباد الله يصفونه بما يليق به.

أو أنـه ضـمير (لمحضـرون) والـتقدير : لكـن عـباد الله نـاجون غـير محضرين فـي العذاب ، وجملة التسبيح معترضة (٤).

والمقصود أن هذا شهادة ببراءة المخلصين من أن يصفوه سبحانه بذلك (٥)، فكل من يجعل بين الله تعالى وبين الجنة وغيرهم نسبا ، فهو عند الله مخلص من الشرك .

وقوله (وما تعبدون) فيه وجهان ، أحدهما : أنه معطوف على اسـم (إن) و(مـا) في (مـا أنـتم) نافيـة ، و(أنتم) اسمها أو مبتدأ ، و(أنـتم) فيـه تغـليب المخـاطب عـلى الغـائب ، إذ الأصـل : فـإنكم ومعـبودكم مـا أنتم وهو، فغلب الخطاب ، وعليه متعلق بقوله (فاتنين) والضمير عائد على (ما تعبدون) بتقدير حذف مضاف .

---

(١) سورة الرحمن / آية ٥٤
(٢) سورة الرحمن / آية ٢٤
(٣) البحر المحيط لأبى حيان / ٧ / ٣٧٩
(٤) الدر المصون للسمين /٩ / ٣٣٤ / ٣٣٥
(٥) تفسير أبى السعود /٧/ ٢٠٩

الثانى : أنه مفعول معه ، وعلى هذا فيحسن السكوت على (تعبدون) والمعنى : إنكم مع معبوديكم مقترنون ، والظاهر أن العطف هو الأولى ، ولذا ضعف القول الثانى .

وقوله (ما أنتم عليه بفاتنين) مستأنف ، والمعنى : ما أنتم على ما تعبدون بفاتنين و بحاملين على الفتنة ، إلا من هو صال منكم.

قال السمين : والاستئناف غير واضح(١)، والظاهر أنها تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين مما ذكر، ببيان عجزهم عن إغوائهم وإضلالهم(٢).

وقوله (إلا من هو) استثناء مفرغ من مفعول (فاتنين النقدر) أى : أحدا .

ويجوز في قوله (من هو) أن تكون (من) موصولة أو موصوفة

وقوله (وما منا إلا له مقام) فيه وجهان أحدهما: أن (منا) صفة لموصوف محذوف هو مبتدأ ، والخبر الجملة من قوله (إلا له مقام معلوم) تقديره : ما أحد منا إلا له مقام .

والثانى : أن المبتدأ محذوف أيضا ، و(إلاله مقام) صفة حذف ، موصوفها والخبر على هذا هو الجار المتقدم ، والتقدير : وما منا أحد إلا

---

(١) الدر المصون للسمين / ٩ / ٣٣٦
(٢) تفسير أبى السعود / ٧ / ٢٠٩

له مقام ، ورد هذا الثانى أبو حيان (١).

وظاهر هذا الكلام وما بعده أنه من كلام الملائكة ، ومفعول (المسبحون) ، يجوز أن يكون مرادا ، والتقدير : والمسبحون الله تعالى.

والصافون أقدامنا أو أجنحتنا ن ويجوز أن لايراد البتة ، والتقدير : نحن من أهل هذا الفعل .

وإيثاره الإخبار عنهم بالغيبة عن الخطاب في قوله (وجعلوا بينه وبين الجنة) للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ، وتحكى لأخرين جنايتهم .

والفاء في قوله (فإنكم وما تعبدون) فصيحة في جواب شرط مقدر والتقدير : إذا علمتم هذا وإذا كان كان المخلصون ناجين (فأنكم) وإيثار الأخبار بالخطاب عن الغيبة في قوله (ما أنتم عليه بفاتنين لإظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام، وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم وفيه إيذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم .

وإيثار مجئ (وإنا لنحن الصافون) أولا إشارة إلى درجاتهم في الطاعة ومنازل الخدمة ، و(وإنا لنحن المسبحون) ثانيا إشارة إلى المعرفة بما يليق بجلالة والاختصاص المذكور لهم هنا ، لأنه لايدوم عليه

---

(١) البحر المحيط لأبى الحيان /٧ /٣٧٩

غيرهم ، لأن خواص البشر لاتخلو من الاشتغال بالمعاش ، وفيه تعريض بالكفرة .

وإيثار الفاء في قوله (فكفروا به) لأنها فصيحة ، فقد أفصحت عن فعل محذوف كما في قوله (فاضرب بعصاك الحجر فانفلق) (١) التقدير : فضرب فانفلق ، وهنا التقدير : فجاءهم ذكر فكفروا به .

وقوله (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) فيه وعيد شديد ، والتقدير : فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وغائلته ، بوعيد لاخلف فيه .

والفرق بين (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) و (سيعلمون) فسوف أكثر توسعا من (السين) وأغلب استعمالها في الوعيد ، والسين في الوعد ، قال تعالى (أولئك سيرحمهم الله) (٢) وقال في الوعيد (فسوف يعلمون إذ الأغلال) (٣) ، وسوف تخلص المضارع للاستقبال .

المعنى :

يخبر سبحانه قولا باطلا آخر عن المشركين الذين لاعلم ولا كتاب عندهم ، فقد جعلوا بين الله وبين الملائكة أو الجنة مصاهرة وصلة ، تعالى الله عما يقول المشركون علوا كبيرا ، وسبوا عن ذلك أن الملائكة بنات الله ، ولقد علمت الملائكة أو الشياطين أنهم يحضرون

---

(١) سورة الشعراء / آية ٦٣
(٢) سورة التوبة /٧١
(٣) سورة غافر ، آية ٧٠

عـذاب الـنار ، تـنزه الكـامل سـبحانه عمـا يصفه المشركون من الولد والنسـب ، ولادليـل عـندهم فـيما ذهـبوا إليه ، بل هو تخرص وكفر ، لكن عباده الذين اصطفاهم فإنهم ينزهونه عن كل ما لايليق بـه ومن جملة مـا ينزهونه منه نفى الولد والنسب ، فهو الواحد ، وهؤلاء الذين شـركوا معـه غيره عبادة الأصنام والأوثان ، ليس بمقدورهم إضلال أحد إلا مـن سـبق عـليه القـول أزلا ، فهو سينصلى ويشوى في نار جهنم ، وبئس المصير ، فالملائكة الذين ذكروهم بغير علم ، هم عباد الله تعالى الذيـن جعـل سـبحانه المقـام المعـلوم كـل واحـد مـنهم في السموات والأرض للعبادة ، فهم عباد مكرمون.

بعض ما يستفاد من الآيات :

١- ذم الـتقول عـلى الله بغـير علم ، وأنه يستوجب العذاب الأليم في جهنم ، هو ومتسبب عن وجود الشرك .

٢- الشـرك يتسـبب عـنه المعاصـى الأخرى ، والتوحيد والإخلاص في العبادة لله تعالى وحده ، يتسبب عنه المغفرة والرحمة .

٣- المؤمـنون عـباد الله الذيـن أخلصـوا له العـبادة لمعرفـتهم بأسماء الله وصـفاته الـتى آمنوا بها وأثبتوها له ينزهونه عن كل ما لايليق به من صفات النقص .

٤- الآيات تنفى أن يقدر أحد كائنا من كان بإضلال وإفساد أحد ابتداء

وإيجـــادا وإنما يزينون الباطل لغيرهم فيوقعونهم في الضلال ، وقـد سـبق قضـاء أزلـي أن يقبـلوا بالـباطل مع حصول العلم فيضـلوا ويفسـدوا ، إذ الله يضـل مـن يشـاء ويهـدى من يشاء للعمل .

٥- الملائكة خلقوا من نور كما جاء في الأثار ، وهم عباد مكرون،ما من موضـع في السموات والأرض إلا وواحد منهم ساجد أوراكع ، ويفعلون ما يؤمرون .

قول الله تعالى ذكره :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ثبات نصر عباد الله تعالى في الجدال والجلاد

ولما كان سياق التهديد السابق يدل على أنه سبحانه سبقت كلمته على من خالف رسله بالخذلان المهين ، عطف عليه سبق كلمته سبحانه لعباده المرسلين وأتباعهم أنهم المنصورون الغالبون لخلوص ما قالوا به من العبادة لله وحده وسلامة ما قالوه على الله تعالى ، من التنزيه الكامل له من كل وجه ، وسلامة ما قالوه على ملائكته مما ذكره في وحيه ، من غير أن يذكروا فيهم أو في غيرهم شيئا ليس لهم فيه علم ، فقد حازوا السلامة قولا وعملا واعتقادا .

قوله (سبقت) السبق التقدم في السير والفضل ، فمن الأول

قوله (إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ) (١) ومن الثانى قوله تعالى (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) (٢) وهم المتقدمون إلى ثواب الله وجنته بالأعمال الصالحة .

و(جندنا) الجند الأنصار والأعوان ، والجمع أجناد ، وجنود الواحد جندى فالياء للواحدة .

و(الْغَالِبُونَ) الغلبة القهر ، يقال : غلبته غلبا وغلبة وغلبا فأنا غالب ، ومنه قوله تعالى (الم غلبت الروم) (٣).

و(فتول) تولى إذا عدى بـ (عن) لفظا أو تقديرا اقتضى معنى الإعراض وترك قربه ، وقديكون التولى بالجسم ، وقد يكون بترك الإصغاء(٤).

ومنه قوله تعالى (وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ) (٥) فقد يكون التولى هنا بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء للوحي وما يقوله النبى ﷺ.

والمعنى هنا : فأعرض عنهم بجسمك وبدنك ، وذلك بعدم قربهم إلى وقت ما .

و(حين) (٦) الحين وقت بلوغ الشيء وحصوله ، وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه ، فيكون للأجل ، كما في قوله (

---

(١) سورة يوسف / آية ١٧
(٢) سورة الواقعة / آية ١٠
(٣) سورة الروم / آية ١
(٤) المفردات للراغب / ٥٣٤
(٥) سورة الأنفال / آية ٢٠
(٦) المفردات للراغب / ١٣٨

وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) (١) وللسنة كما في قوله (تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا) (٢) وللساعة كما في قوله تعالى (فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) وللزمان المطلق كما في قوله تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ)(٣).

يحتمل أن يكون المراد هنا الأجل ، والمعنى : فأعرض عنهم إلى أن يأتى أجلهم المحتوم ، وهو الموت ، أو العذاب المهلك للمخالفين وذلك بنصرك عليهم في بدر أو بالفتح .

و(أبصرهم) الإبصار يقال للقوة التى في القلب ، وقد يقال للجارحة الناظرة(٤) وهو قليل ، والأول يراد به البصيرة والمعرفة ، وهو المقصود هنا ، والمعنى : وأبصرهم وأطلعهم وعرفهم على ما ينالهم حينئذ ،والأمر هنا للدلالة على أن ذلك كائن قريب ، كأنه مشاهد قدامه .

و(بساحتهم) الساحة الفناء والمكان الواسع ، ومنه ساحة الدار ، والساحة جمع سوح ، والمعنى فإذا نزل العذاب الموعود بفنائهم ، كأنه جيش قد هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة.

---

(١) سورة الصافات / ١٤٨
(٢) سورة إبراهيم / ٢٥
(٣) سورة لإنسان / ١
(٤) المفردات للراغب / ٤٩

و(فساء) ساء هنا تجرى مجرى بئس ، والتقدير: فبئس صباح المنذرين صباحهم والصباح لوقت نزول العذاب، أى وقت كان من صباح الجيش المبيت للعدو ، وهو سائر إليه ليلا ليهجم عليه،وهو في غفلته صباحا وكثيرا مايسمعون الغارة صباحا لما أنها في الأعم الأغلب تقع فيه، أو أنه كانت من عادة مغاويرهم إصباحا فسميت الغارة صباحا ، وإن وقعت فى وقت آخر .

و(سلام) السلام هو السلامة من الأفات الظاهرة والباطنة فالرسل عليهم السلام سالمون عن كل المكاره ، لسلامة ما قالوه على الله تعالى من أى مكروه .

وقرأ العامة (كلمتنا) بالإفراد(١) ، وقرئ بالجمع ، والمراد باكلمة هنا الوعد المفهوم من مواضع أخرى في القرأن ، كما في قوله تعالى (لأغلبن أنا ورسلى) (٢) والمقصود منه القضاء المتقدم منه قبل أن يخلق خلقه في أم الكتاب الذي جرى به القلم بعلو المرسلين على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم الحرب .

وقرأ العامة (نزل) مبنيا للفاعل ، وقرئ عن ابن مسعود ﷺ مبنيا للمفعول مخففا وقرىء مثقلا(٣)، والجار والمجرور (بساحتهم) نائب الفاعل .

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان /٣٨٠/٧

(٢) سورة المجادلة / آية ٢١

(٣) البحر المحيط لأبى حيان /٣٨٠/٧

وقرئ (فساء صباح) فبئس صباح والمخصوص بالذم محذوف تقديره : فساء صباح المنذرين صباحهم(١).

وقوله إنهم لهم المنصورون) جملة تفسير للكلمة ، فيجوز أن لايكون لها محل من الإعراب ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ مضمر ، والتقدير هى أنهم لهم المنصورون .

وقوله (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ) استفهام توبيخى يفيد الإنكار عليهم على وجه هو تهديد آخر لهم ، لأنهم طلبوا نزول العذاب استهزاء .

وقوله (رب العزة) أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها ، كأنه قيل ذوا العزة ، كما تقول : صاحب صدق لاختصاصه به(٢) ، ولذا ينعقد بها اليمين لاختصاصه بها ، ولأنها صفة من صفاته .

وقيل : المراد العزة المخلوقة الكائنة بين خلقه ، وهذه لاينعقد بها اليمين.

وإيثار إضافة العباد إليه سبحانه في قوله (لعبادنا) تشريفا لهم وتنويها بهم والمراد بالغلبة ما كان بالحجة ، والغلبة والنصرة في الحرب.

والجملتان (إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون)

---

(١) نفس المصدر /٧/ ٣٨٠

(٢) الدر المصون للسمين / ٩ / ٣٤١

دلـتان عـلى الثبات والاستمرار ، ولايضر انهزام في بعض المواطن من بعضـهم ، ولاوهـن قـد يقـع فـلا يغـلب اتباع المرسلين في حرب إلا بسـبب اخـلال منهم بما تشعر به نفوسهم بميل ما إلى الدنيا أو ضعف التوكل عليه سبحانه .

وإيـثار (كـلمة) في قراءة الإفراد ، وهى قراءة العامة ، وهى فى الحقيقـة كـلمات لأنها لما اجتمعت وتضامنت وارتبطت غاية الارتباط صارت في حكم شئ واحد.

ومجئ (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) ثم قال (وأبصر فسوف يبصـرون لتسـلية رسـول الله ﷺ إثـر تسلية ، وتأكيد لوقوع الميعاد غب تـأكيد ،وإيـثار اطـلاق الفعـلين (أَبْصَرَ) عـن المفعول للإيذان بأن ما يبصـره ﷺ حينـئذ مـن فـنون المسـار ، ومـا يبصرونه من أنواع المضار ، لايحيـط بـه الوصـف والـبيان ، وفيـه وعيد شديد وتهديد لهم ، فسوف يلقون ما أوعد الله به أهل معصيته من أليم عقوبته(١).

وقيل : أريد بالأول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة .

وإيثار إضافة الرب إلى ضميره للإعراب عن التربية والتكميل والمالكيـة الكلية ، وكأنه قيل : سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العـزة والغلبة على الإطلاق ، عما يصفه المشركون به من الأشياء التى

---

(١) در التنزيل وغرة التأويل للخطيب الاسكافى / ٣٩٦

منها ترك نصرتك عليهم فما من عزة لأحد من خلقه إلا وهو عز وجل مالكها .

وإيثار الإيتان بالحمد المطلق لرب الخلق أجمعين ، وهو ما يدل على وجوب الكمال المطلق له سبحانه ، المنتفى معه كل نقص ، بعد تنزيهه عن كل ما لايليق به ، لبيان وصفه تعالى بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على سلب صفات النقض إجمالا ، وهى عادة القرآن في بيان ما لله تعالى من صفات الكمال على سبيل التفصيل ونفى صفات النقص على سبيل الإجمال، وذلك كما في قوله تعالى (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)(١) والاستفهام للإنكار المفيد للنفى ، والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة ، أوليس أحد يستحق مثل اسمه أو صفة مثل صفته، أو مسمى مثل مسماه ، والمعنى : لاسمى له في الاسم والمسمى، وعليه فلا سمى له في جميع أسمائه ، والمراد بنفى العلم المستفاد من الإنكار هنا : نفى المعلوم على أبلغ وجه وأكمله(٢).

وهو ظاهر في النفى الإجمالى ، ونظيره قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(٣).

والمراد من هذه الطريقة في النفى والإثبات لأسمائه سبحانه وصفاته تنبيه وتعليم المؤمنين كيفية النفى والإثبات بتسبيحه تعالى وتحميده

---

(١) سورة مريم / آية٦٥
(٢) فتح القدير للشوكانى / ٣ / ٣٤٥
(٣) سورة الشورى / آية ١١

عـلى أنه له الأسماء الحسنى والصفات العلا فيدعى بها ليفيض عليهم مـن آثارهـا ، قـال جـل عـز (وَلِـلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِيـنَ يُـلْحِدُونَ فِـي أَسْـمَائِهِ) (١) ، والتسـليم عـلى المرسلين عليهم السـلام الذين هم وسائط بينه تعالى وبينهم ،وذلك لسلامة ما قالوه في وصـفه بمـا أراد مـن الكمال المطلق الذي يستحقه وفوق ما يستحقه ،إذ لانحصـى ثـناء عـليـه فهو كما أثنى على نفسه، ولعل توسيط التسليم عـلى المرسـلين ، بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعـالى،مع مـا فيـه مـن الإشارة بأن توفيقه تعالى للتسليم من جملة نعمه تعالى الموجبة للحمد .

وقيـل : تقديم التنزيه لأهميته ذاتا ومقاما ، ولما كان التنزيه عما يصـف المشركون وقد ذكر عز وجل إرشاد الرسل إياهم وتحذيرهم لهم أن يصـفوه سـبحانه بمالايـليق بـه تعـالى ، وضمن ذلك الإشارة إلى سؤ حـالهم وفظاعـة منقلـبهم أردف جل وعلا ذلك بالإشارة إلى حسن حال المرسـلين الداعـين إلى تـنزيهه تعالى عما يصفه به المشركون ، وفيه من الاهتمام بأمر التنزيه ما فيه (٢).

والـذى ينظر إلى المقام هنا يرى أن السلام أهم من الحمد نظرا لـلمقام ، وإن كـان هـو أهـم مـنه ذاتـا ، والأهميـة بالنظر للمقام أولى

---

(١) سورة الأعراف / آية ١٨٠

(٢) روح المعانى للألوسى / م٨ / ٢٣ / ١٥٨

بالاعتبار عندهم ، ولذا تراهم يقدمون المفضول على الفاضل إذا اقتضى المقام الاعتناء به .

وبالجملة فقد ختم السورة بأكمل وأشمل الآيات الدالة على كمال قدرته وواسع علمه وعظمته ، فقد نزه نفسه عما يصفه المفترون المشركون ، وسلم على المرسلين ، لسلامة ما قالوه من الإفك والشرك ، وحمد نفسه ، إذ هو سبحانه المستحق للحمد بماله من كمال الأسماء والصفات وبديع المخلوقات ، التى يستحق لأجلها الحمد ، وينزه عن كل نقص ينافى كماله وحمده .

والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه على المرسلين وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم ، كما هو في الآيات هنا .

وفى اقتران السلام بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا ، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه ، ثم سلم على المرسلين ، وهذا يقتضى سلامتهم من كل ما يقول المكذبون المخالفون لهم ، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به .

فأعظم ما جاءوا به التوحيد ، ومعرفة الله،ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم ، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض وما خالفه هو الباطل ، وهذا المعنى بعينه في

قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) (١) فإنه يتضمن حمده بماله من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب ، وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل .

فلا طريق للخلق للوصول إلى معرفة الله تعالى والدين الخالص الموصل إلى السعادة الأبدية إلا عن طريق الرسول محمد ﷺ ، لأنه جاء بالحق المبين ، وكل طريق سوى طريقه محفوف بالمهالك والمخاطر ، ونهايته الشقاء الأبدى .

فاللهم وفقنا لسلوك طريقه ، والتمسك بما جاء به ، واحشرنا في زمرته يوم الدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النمل / ٥٩

اهم مصادر البحث

١- المفردات للراغب

٢- روح المعانى للألوسى

٣- جامع البيان للإمام الطبرى

٤- حاشية الشيخ زاده على البيضاوى

٥- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى

٦- الدر المصون للسمين

٧- حاشية الشهاب الخفاجى

٨- تفسير أبى السعود

٩- درة التزيل للخطيب الإسكافى

١٠- فتح القدير للشوكانى

١١- بدائع الفوائد لاين قيم الجوزية

١٢- البيان في غريب إعراب القرآن للأنبارى

١٣- معانى القرآن للفراء

١٤- الاتقان في علوم القرآن للسيوطى

١٥- حشية الجمل على الجلالين

١٦- زاد المسير لابن القيم الجوزى

١٧- النشر في القرءات العشر ، لابن الجزرى

١٨- الكشاف للإمام الزمخشرى

١٩- تفسير ابن كثير

٢٠- نظم الدرر للإمام البقاعى

٢١- التفسير الكبير ، للإمام الرازى

٢٢ - الدر المنثور ، للسيوطى

٢٣- املاء ما من به الرحمن ، للعكبرى

٢٤ـ غريب القرآن ، للأنبارى

٢٥- نتائج الفكر ، للإمام السهيلى

٢٦- صحيح ابن حبان

٢٧- المستدرك للحاكم النيسابورى

٢٨- كشف الخفاء للعجلونى

٢٩ - الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبى

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصـ
المقدمة	٣
التمهيد	٧
الموضوعات الفرعية للسورة	٩
مناسبتها لما قبلها	١٠
القسم في القرآن ـ آيات من ١إلى ٥	١١
حقيقة القسم	١٣
القسم من الله تعالى ببعض مخلوقاته	١٤
أركان القسم	١٤
القسم وسيلة من وسائل الإقناع	١٦
العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه	١٦
القسم بالمخلوق	١٩
الصف والزجر	٢٠
معنى التلاوة إله	٢١
إعراب : صفا ، وزجرا وذكرا	٢٢
المراد بالصافات ، فالزاجرات، وحكمة ترتيب هذه الصفات	٢٥
تأنيث لفظ (الملائكة)	٢٦
القراءات في (الصافات صفا)	٢٨
توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية	٣٠
تخصيص الشروق دون الغروب	٣٠

اختصاص كل موضع من الإفراد والتثنية والجمع في
المشرق والمغرب ٣١
معنى الآيات وما يستفاد منها ٣٣
(بعض دلائل قدرة الله تعالى) من ـ ٦ إلى ١٠ ..... ٣٥
معنى ، الزينة ، والسماء ، والدنيا ٣٥
معنى شيطان مارد ٣٦
معنى دحورا ، واصب ، خطف ، والقراءات فيها ٣٧
القراءات في (بزينة الكواكب) ٣٨
القراءات في (لا يسمعون) ٤١
وجوه البلاغة في الآيات ٤٢
المعنى ، وبعض ما يستفاد ٤٢
(حجج منكرى التوحيد والبعث والبعث) من ١١: ١٥ ..... ٥١
القراءات في قوله (أمن خلقنا) و (لازب) و(عجبت) ٥٢
معنى (يستسخرون) و (سحر مبين) ٥٤
وجوه البلاغة في الآيات ٦٠
بعض ما يستفاد من الآيات ٦٢
(استبعاد الكفار للبعث)، من ١٦إلى ٢١ ..... ٦٣
معنى : الدين ،الفصل ، القراءات في (ءإذا) ٦٤
وجوه البلاغة في الآيات ٦٨
المعنى ، وبعض ما يستفاد ٧٠

(هداية الخلق إلى جزائهم في الآخرة) من ٢٢: ٢٦ ..... ٧٢
معنى : الحشر ٧٢
أقسام الهداية ٧٤
القراءات في (أزواجهم) و (لاتناصرون) ٧٨
إزالة وجه التعارض في الآيات ، وبعض ما يستفاد من الآيات .. ٨١
(مخاصمة أهل الباطل يوم القيامة) من ٢٦: ٤٠ ..... ٨٧
المقصود بـ (اليمين) في قوله (تأتوننا عن اليمين) ٨٨
معنى (لذائقوا) و (المخلصين) ٩٢
القراءات في صدق المرسلين ٩٢
وجوه البلاغة في الآيات ٩٦
بعض ما يستفاد من الآيات ٩٩
(نزل عباد الله الموحدين) من ٤١: ٤٩ ..... ١٠٠
المقصود بـ (قاصرات الطرف عين) ١٠٥
القراءات في (مكرمون) و(سرر) و (ينزفون) ١٠٧
الوجوه البلاغية في تراكيب الآيات ١١٢
بعض ما يستفاد من الآيات ١١٤
(صدق وعد اله تعالى برؤية ما عليه القرناء في الآخرة)
من ٥٠ إلى ٦٠ ..... ١١٥
معنى : قرين مدين ١١٥
معنى : كاد ١١٦

القراءات في قوله (المصدقين) وذكر أثر الرجلين فيذلك ١١٨
القراءات في قوله (مطلعون) ١٢٠
وجوه البلاغة في الآيات ١٢٥
بعض ما يستفاد من الآيات ١٢٨
(وعيد الله تعالى بسؤ النزل لمنكرى البعث) من ٦١: ٧٤ ..... ١٣٠
معانى : لشوبا ، ألفوا ، يهرعون ١٣٢
القراءات في قوله (لشوبا) ١٣٥
إعراب (نزلا) ١٣٥
الوجوه البلاغية في الآيات ١٣٩
تكرار بعض الجمل في السورة أكثر من مرة ١٤٢
بعض ما يستفاد من الآيات ١٤٣
(ذكر بعض قصص المرسلين مع أقواقهم) من ٧٥: ٨٢ ..... ١٤٥
معانى : النداء ، فلنعم ، الكرب ١٤٥
معنى (العاملين) لمجزى ، اغرقنا ١٤٨
الوجوه البلاغية في الآيات ١٥٢
بيان المقصود من ذرية نوح عليه السلام ١٥٣
بعض ما يستفاد من الآيات ١٥٤
(إقامة الحجج على إقرار الشركين بتفرد الله بالألوهية) من ٨٣: ٩٦.. ١٥٥
مناسبة ذكر قصة إبراهيم عليه السلام بعد نوح عليه السلام ١٥٥
معانى : الإفك ، دون ، الظن ١٥٦

المقصود بالنظر في قوله (فنظر نظرة في النجوم) ١٥٨
القراءات في (يزفون) ١٦٠
التقديم من أجل الفواصل ١٦٥
تفسير قوله تعالى (والله خلفكم وما تفعلون) ١٦٦
الراجح في معنى (ما) من قوله (وما تفعلون) ١٦٦
الوجوه البلاغية في الآيات ١٦٩
بعض ما يستفاد من الآيات ١٧١
(إنجاء الله لعباده المخلصين) من ٩٧: ١١٣ .....١٧٣
معانى : فألقوه ، كثيرا ، الأسفلين ، هب ١٧٤
القراءات في قوله (يا بنى) (وما ترى) و(يا أبت) ١٧٨
الوجوه البلاغية في الآيات ١٨١
الذبيح إسماعيل عله السلام ،و النسخ قبل الفعل ١٨٦
بعض ما يستفاد من الآيات ١٩٠
(منة الله تعالى على رسله بالقرب ةالنصرة)من ١١٤: ١٢٢ .....١٩٢
معانى : مننا ، الغالبين ، المستبين ١٩٣
وجوه البلاغة في الآيات ١٩٤
بعض ما يستفاد من الآيات ١٩٥
(ذكر بعض المجددين لما اندرس من اصول الدين) من ١٢٣، ١٣٨.. ١٩٦
معانى : ألا تتقون ، بعلا ، تذرون ، مصبحين ١٩٦
معنى : أفلا تعقلون ، ـ القراءات في (بعلا) ١٩٨

المقصود بالاستثناء في قوله (إلا عباد الله المخلصين) ٢٠٠
وجوه البلاغة في الآيات ٢٠١
بعض ما يستفاد من الآيات ٢٠٢
(رجاء الأنبياء والمرسلين في سلامة أممهم) من ١٣٨: ١٤٨ ..... ٢٠٣
معانى : أبق ، الفلك ٢٠٣
معنى : أو من قوله (أو يزيدون) ٢٠٧
القراءات في (يونس) و (مليم) ٢٠٨
وجوه البلاغة في الآيات ٢٠٨
حكمة عدم ختم هذه القصة والتى قبلها بما ختم به القصص قبل. ٢٠٩
معنى الآيات ٢٠٩
بعض ما يستفاد من الآيات ٢١٠
(ذكر القصص في القرآن لبيان ضلال المقلدين لآبائهم)
من١٤٩ : ١٥٧ ..... ٢١٢
معانى : أصطفى ، صادقين ٢١٣
القراءات في قوله (ولد الله) و (أصطفى)و (تذكرون) ٢١٤
وجوه اللاغة في الآيات ٢١٨
بعض ما يستفاد من الآيات ٢١٩
(تفاوت مقام الملائكة) من ١٥٨: ١٧٠ ..... ٢٢١
معانى : الجنة ٢٢٢
القراءات في (صل) ٢٢٤

وجوه البلاغة في الآيات ٢٢٨
معنى الآيات ٢٢٩
بعض ما يستفاد من الآيات ٢٣٠
(نصر الله لعباده في الجدال والجلاد) من ١٧١: ١٨٢ ..... ٢٣٢
معانى : سبقت ، جندنا ٢٣٢
القراءات في قوله (كلمتنا) و(نزل) ٢٣٥
وجوه البلاغة في الآيات ٢٣٦
خاتمة السورة ٢٤٠
أهم مصادر البحث ٢٤٣
فهرس الموضوعات ٢٤٥

رقم الإيداع
بدار الكتاب المصرية
٩٠٠٨ لسنه ٢٠٠٣
مطبعة رشوان